مجالس السلطان الغوري

صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري

تأليف

الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عزام ، عبد الوهاب
مجالس السلطان الغورى : صفحات من تاريخ مصر فى القرن العاشر الهجرى
تاليف : عبد الوهاب عزام
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
180 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-466-5
1- مصر – تاريخ – عصر المماليك (1250-1517 م)
ا- العنوان

ديوى: 953,82

رقم الايداع: 2572

بسم الله
الرحمن
الرحيم

السلطان الغورى

مقدمة

اطلعت منذ سنين على كتاب فى دار الكتب المصرية اسمه " الكواكب الدرى فى مسائل السلطان الغورى" ، يتضمن آراء السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك المصريين فى مسائل من الفقه والتفسير وغيرها عرضت فى مجالسه. والكتاب نسخة مصورة عن نسخة فى استنبول هى نسخة السلطان التى كتبت له فى القاهرة وأهديت إلى خزانة كتبه.

قرأت الكتاب وتقريت سيرة السلطان فى العلم والأدب، فعثرت على أبيات له بالعربية والتركية، وألقيت محاضرة فى الجمعية الجغرافية موضوعها " مكانة السلطان الغورى فى العلم والأدب" . ثم دأبت على استقراء سيرة هذا السلطان، فأخبرنى بعض العلماء أن الشاهنامة ترجمت نظمًا إلى التركية بأمر الغورى، وأن نسخة من هذه الترجمة فى إحدى دور الكتب باستانبول. فكتبت إلى أحد العلماء هنالك فأجابنى أنه لم يجد الكتاب فى المكتبة التى سميتها له. ومرت سنوات قبل أن أعثر فى مكتبه الأمير إبراهيم حلمى - التى أهداها الملك فؤاد رحمة الله إلى مكتبة الجامعة المصرية - على مجلد فيه نصف الكتاب المفتقد. شرعت أقرأ الكتاب فرحًا بهذا الظفر، متعرفًا اللغة التى نظم بها، متبينًا فرق ما بينها وبين اللهجات التركية الأخرى.

ثم عرفت بعد قليل أن نسخة كاملة من هذه الترجمة فى مكتبة المتحف البريطانى، فعزمت على أن أنقل صورتها إلى مكتبة الجامعة.

ثم سافرت إلى استانبول عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) لأنقب فى مكتباتها عن الشاهنامة التركية، شاهنامة الغورى، وعن كتب أخرى. وانتهى البحث

إلى أن عثرت فى مكتبات السلاطين العثمانيين فى سراى طوب قيو على نسخة من الكتاب فى مجلد واحد ضخم فيه صورة ملونة جميلة.

ويستطيع القارئ أن يقدر اغتباطى ودهشتى إذا علم أن هذه النسخة التى عثرت عليها بعد طول البحث والتحرى هى النسخة الأم من هذا الكتاب - النسخة الأولى التى كتبها المترجم بيده فى القاهرة وقدمها إلى السلطان الغورى.

زاد اطلاعى على مقدمة الكتاب وخاتمته معرفتى بعناية السلطان بالأدب ورعاية أهله، فزدت إعجابًا بالرجل وإعظامًا له. وأطلعت من بعد على كتاب آخر يتضمن طرفًا من آراء السلطان ومحاوراته فى مجالسه اسمه "نفائس المجالس السلطانية" وهو نسخة فى دار الكتب مصورة عن نسخة فى استانبول هى النسخة التى كتبت للسلطان.

وينبغى أن أقول أعترافًا بالفضل لأهله إن الذى أطلعنى على هذا الكتاب وكتاب الكواكب الدرى هو العالم الفاضل الشيخ محمد عبد الرسول، جزاه الله خيرًا.

اجتمع لى كتب ثلاثة ألفت للسلطان، واجتمع لى الأمهات من هذه الكتب - النسخ الأولى التى كتبت للغورى وقدمت إلى خزانة كتبه. فجعلت هذه الكتب الثلاثة موضوع بحث ألقيته فى مؤتمر المستشرقين، الذى اجتمع فى بروكسل سنة ١٩٣٨.

ورأيت أن أطبع "نفائس المجالس السلطانية" كله ثم بدأ لى أن أختار منه ومن الكتاب الآخر "الكوكب الدرى" ما يفى بالمقصود، وأن أعفى القارئ من كثير من المسائل التافهة المتشابهة التى يتضمنها الكتابان، فاخترت

من الكتابين مسائل وافية بتصوير مجالس الغورى وتبين آرائه وآراء العلماء والكبراء الذين كانوا يغشون مجالسه، لتكون صفحات من تاريخ بلادنا فى القرن العاشر الهجرى.

* * *

مدخل

السلطان الغورى

- ١ -

مكانه مصر بين المماليك الإسلامية أواخر عصر المماليك، وموقفها فى تباشير العصور الحديثة بين الشرق والغرب، وصلاتها بدول أوروبا والدول الإسلامية؛ خاصة دول بنى عثمان، وقوة أساطيلها فى بحر الروم والبحر الأحمر إلى الهند، واحتلالها بعض سواحل الهند لتأمين التجارة، واصطدامها بأساطيل البرتغاليين فى المحيط الهندى، ثم نظام السلطان فى مصر إذ ذاك، وأحوال مصر العلمية والأدبية والاقتصادية - كل أولئك مجال واسع لبحث عويص مفيد ممتع ذى خطر فى تاريخ مصر والبلاد العربية والإسلامية، وتاريخ العالم كله. وعسى أن يوفق مؤرخونا إلى درس هذه المسائل وبسطها؛ فهى جديرة بالدرس والبسط، وهى من الواجبات الأولى على المؤرخين المصريين.

كان السلطان الغورى يدبر ملكًا واسعًا هو ملك مصر والأقطار التى تتبعها فى أكثر العصور - الملك الذى ذكره أبو الطيب المتنبى وهو يمدح كافورا الأخشيدة:

يدبر الملك من مصر إلى عدن

إلى العراق ، فأرض الروم فالنوب

كانت مصر والشام وبلاد العرب، وبعض الجزيرة الفراتية، وبلاد

العواصم، وهى القسم الجنوبى من آسيا الصغرى، فى سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الإسلامية. وكانت كذلك أيام الغورى، وكان بنو رمضان الذين تسلطوا فى أذنه وطرسوس وما يليها يولون من قبل سلاطين مصر.

وبلغت الأساطيل المصرية سواحل الهند، وبنت عليها قلاعًا لحماية التجارة. وقد اجتهد الغورى زمنًا فى الاحتفاظ بسلطان المصرين فى تلك الأرجاء، على رغم البرتغاليين. وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند فى الحين بعد الحين.

وكان للغورى، ولسلاطين المماليك من قبله، الزعامة بين ملوك المسلمين، لتوليهم خدمة الحرمين الشريفين ولمكان الخلافة العباسية فى مصر. ومن يتبع الرسائل التى كانت بين ملوك مصر وغيرهم من الملوك المسلمين، ويتعرف أحوال الأقطار الإسلامية فى تلك العصور يعرف أن ملوك مصر لم يكونوا ينازعون فى هذه الزعامة. وحسب الباحث أن يقرأ الرسائل التى تراسل بها سلاطين آل عثمان ومماليك مصر. وكثير منها محفوظ فى منشآت السلاطين التى جمعها فريدون بك فى القرن الحادى عشر الهجرى.

ولهذا نجد فى تاريخ الغورى كثيرًا من أخبار الرسل أو القصاد الذين كانوا يترددون بينه وبين الأقطار الإسلامية، وغير الإسلامية. نجد رسلاً من الهند وإيران والعراق ومن قبل السلاطين العثمانيين، وأمراء آسيا الصغرى، ومن بلاد السودان والحبش، ومن بلاد الكرج وأوروبا وجزر بحر الروم. وكثير من الأمراء المغلوبين على أمرهم كانوا يلجئون إلى مصر ليستنجدوا سلاطينها أو يقيموا فيها آمنين.

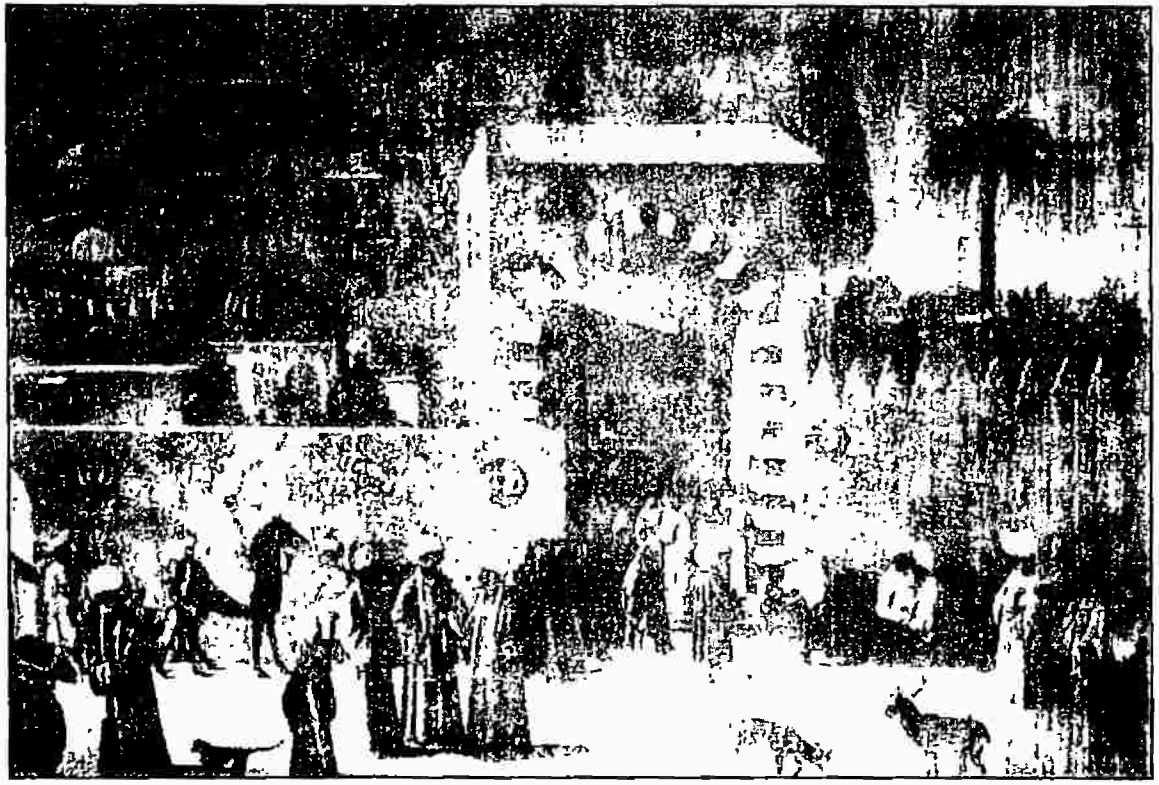

صورة تبين السلطان جالسًا على باب قصره يستقبل السفراء

يقول ابن إياس فى حوادث ربيع الأخر سنة ٩١٨ :

"ومن العجائب أن فى هـذا الشهر اجتمع عند السلطـان نحو من أربعة عشر قاصـدًا. وكل قاصد من عند ملك على انفراده. فمن ذلـك قاصد شاه إسماعيل الصوفى، وقاصد ملك الكرج، وقاصـد ابن رمضان أمير التركمان، وقاصـد من عن ابن عثمـان ملك الروم، وقاصد يوسف ابـن الصوفى خليل أمير التركمان، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب، وقاصد من مكة، وقاصد الملك محـمود، وقـاصد ابن درغل أميـر التركـمان، وقاصـد من عند نائب حلب، وقاصد من عـند حسين الذى توجه إلى الهند، وقـاصد ملك الفرنج الفرانسة، وقـاصد البنادقة، وقاصد على دولات، وغيـر ذلك قصاد من عند جماعة من النواب".

ولا أريد أن أبين هنا مكانة مصـر وعلاقتها مع بـلاد الشرق والغرب إذ ذاك؛ فإن من أصعب المبـاحث التاريخية وأوسـعها وأكثرها إمـتاعًا أن يُدرس التنافس بين الدول الإسلاميـة المتجاورة: الدولة المصرية، والدولة العثـمانية، والدولة الصفوية، وموقف مصر بين جارتيها وبين الدول الأوربية التى تنافسها فى بحر الروم وبحر الـعرب إلى الهند، وتعرف الأسباب التى مـكنت سليمًا من أن يهزم إسـماعيل الصـفوى وقانصـوه الغورى، والأسبـاب التى أخرت الدول الإسلامية عامة عن منافسة الأوربيين فى مغامراتهم فى بحار الشرق.

إن هذه المباحث وما يتصل بها ليست مما يتسع لتفصيله أو إجماله هذه المقدمة؛ وإنما ألمعت إلى هذه الحوادث لابين مكانة مـصر وسلاطينها فى ذلك العصـر وبين العبء الذى اضطلع به الغـورى فى تدبير أمـور مصر الـداخلية والخارجية.

وسأذكر فى الأوراق الآتية طرفًا من سيرة السلطان الغورى أجعله إيضاحًا وتكملة لما يستفاد من الكتابين اللذين أقدم لهما هذه المقدمة.

وعمدتى فى هذا تاريخ ابن إياس المؤرخ المعاصر المدقق. وقد حرصت على أن أدعه يحدث القارئ بلغته، كلما أمكن هذا؛ لأن آراء ابن أياس ولغته وأسلوبه صور من تاريخ ذلكم العصر.

٢ - كيف تولى الغورى الملك[١]:

تولى أمر مصر فى أواخر القرن التاسع الهجري سلطان من أعظم السلاطين المماليك همة، وأحسنهم سياسة، وأكثرهم برًا، هو الملك الأشراف قايت باى. ملك من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠١، فاستقرت به الأمور فى مصر بعد الاضطراب الذى عقب وفاة الظاهر خوشقدم.

وقد شغل زمنًا بمحاربة العثمانيين فى عهد السلطان بايزيد الثانى ابن الفاتح وظفر عليهم فى أكثر الوقائع، ولكنه صالحهم آخر الأمر سنة ٨٩٦ على أن يرد إليهم مدينتى أذنه وطرسوس.

ولا تزال آثار هذا السلطان الكبير ظاهرة فى مصر والحجاز.

وتلا وفاة قايت باى عهد من الاضطراب تداول فيه أمر مصر وما يتبعها خمسة سلاطين: خلفة أبنه محمد، وخلع بعد ستة أشهر، ثم عاد إلى الملك

(١) بينت فى محاضرة ألقيتها فى الجمعية الجغرافية الملكية منذ سنوات أن الضبط الصحيح لهذا الأسم هو الغورى بفتح الغين لاضمها، وكانت حجتى فى هذا أن الأسم كتب بهذا الضبط على مصحف للسلطان فى دار الكتب المصرية. وقد صدق هذا الرأى أبيات كثيرة فى الشاهنامة التركية جاء فيها الغورى فى القافية مع كلمات مثل دور، وغور، وأن الأسم ضبط هذا الضبط فى عنوان هذا الكتاب. وفى ابن أياس سجعه ترجع أنه العورى بضم الغين ولكنها الا تكافئ الأدلة القوية التى ذكرتها (ص ١٢ الآتية).

بعد خمسة أشهر فملك ثمانية عشر شهرًا، ثم قتل سنة ٩٠٤. وتوالى بعده ثلاثة سلاطين فى ثلاثين شهرًا.

فلما اختفى السلطان طومان باى هربًا من المماليك اجتمع رؤساء الدولة ليختاروا سلطانًا ينتهى بولايته هذا الاضطراب.

وانقل هنا من تاريخ ابن إياس جملة تصور الحال تصوير معاصر خبير:

" وثب العسكر على العادل (طومان باى) فى سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة، واختفى فى ليلة عيد الفطر بعد العشاء. فلما أصبح ذلك اليوم وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبيرالخ[1]، ثم ظهر خوشكلدى البيسقى، وكان مختفيًا من العادل لما أراد القبض عليه. فلما تكاملوا اجتمعوا ببيت قانصوه خمسمائة الذى بقناطر السبع، فحضر إليهم الأتابكى تأنى بك الجمالى، وكان مختفيًا من حين كسر الأشراف جانبلاط وتسلطن العادل.

فلما حضر وقع الاتفاق على سلطنته أولاً، فركب من هناك وعلىّ رأسه الصنجق[2] السلطانى. وقد ترشح أمره إلى السلطنة. فلما طلع إلى باب السلسلة ليلى السلطنة أشيع فى ذلك اليوم أن الأشراف قانصوه خمسمائة باق على قيد الحياة. فأشهروا النداء فى القاهرة بأن قانصوه خمسمائة أن كان موجودًا فليظهر وله الأمان. وأن لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له.

فلما طال المجلس انفض العسكر من الرملة، ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا فى الحراقة بباب السلسلة، وكان يوم عيد الفطر، فاحتار كل

---

(١) عد ابن أياس تسعة أمراء آخرين.

(٢) الصنجق العلم.

أحد عوده إلى داره حتى يقع اختيار لأمراء على من يولوه السلطنة. فأعرض غالب العسكر عن الأتابكى تانى بك الجمالى، ولم يرض به أحد منهم. وكان الأتابكى تانى بك الجمالى أرشل معكوس الحركات فى أفعاله. وطاش لما ذكر للسلطنة. ثم آل أمره بعد ذلك إلى كل سوء. فلم تقم له السلطنة، وكانت من نصيب قانصوه الغورى. . . .

فلما رأوا المجلس مانع[1] تعصب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح والأمير مصرباى، إلى قانصوه الغورى، وقالوا ما نسلطن إلا هذا. فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع فى ذلك ويبكى، وربما كلمه مصر باى ومزق طوق ملوطته، وهو يمتنع غاية الامتناع. فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب، وقاضى القضاة بعد الغنى أبن تقى المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى، وتأخر قاضى القضاه الشافعى زين الدين زكريا، وبرهان الدين الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولوه السلطنة، فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة، وشهد فيه جماعى كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء. ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى. وبايعه الخليفة. وكانت سلطنته فى يوم الأثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة.

ثم أحضر إليه شعار السلطنة، وهى الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك. كل هذا وهو يمتنه ويبكى، فلقبوه بالملك الأشرف، وسما فى علوه وأشرف، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى، وبه صارت مصر مشرقة بالنورى، وقيل:

---

(١) يعنى: لم يتفق المجلس على أمر.

ألا إنما الأقسام تحرم ساهرًا وأخر يأتى رزقه وهو نائم

ثم قدمت له فرص النوبة بالسرج الذهب والكنبوش. فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة، فتقدم قيت الرجبى وحمل القبة والطير على رأسه، وقد ترشح أمره إلى الأتابكية. فركب الخليفة عن يمين السلطان، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك والباقى للزوال نحو من خمسة وعشرين درجة، وكان الطالع بالسرطان، فأول من قبل له الأرض قيت الرجبى، ثم بقية الأمراء شيئًا فشيئًا، ثم أخلع على الخليفة ونزل إلى داره وأخلع على مصر باى وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية عوضًا عن نفسه؛ فنزل إلى داره فى موكب حافل. ثم دقت له البشائر بالقلعة، ونودى باسمه فى القاهرة، وارتفعت الأصوات له بالأدعية الفاخرة، وزال ما كان من الشكوك والظنون، وأقرت من الناس بسلطته العيون، فكانت سلطنته على غير القياس، وأشيع بأن بنيانه على غير أساس، فصار منه بعد ذلك الهزل جد، ومكث فى السلطنة مكثًا جاوز الحد، فزال عنه الأضرار والباس، وامتلأت منه أعين الناس، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده»[1].

٤ - الغورى قبل السلطنة:

الغورى جركسى من مملوكى السلطان قايت باى، أعتقه وولاه بعض الأعمال فى حاشيته حتى جعل كاشفًا للوجه القبلى سنة ٨٨٦، ثم جعل أمير عشرة السنة التالية، ثم ولى بعض الولايات فى الشام وما يتصل بها من بلاد

(١) ابن أياس حوادث سنة ٩٠٦.

العواصم. وما زال يتقلب فى المناصب ويرتقى أيام محمد بن قايت باى ومن بعده حتى ملك طومان باى وهو بالشام والغورى فى صحبته. فلما رجع إلى القاهرة ولى الغورى ما كان يليه هو من الأعمال: الدواداية الكبرى والوزارة والأستادارية.

٥ - حليته وأخلاقه وطرف من سيرته:

وكان فيما وصفه ابن اياس: "طويل القامة، غليظ الجسد، ذا كرش كبير، أبيض اللون، مدور الوجه، مشحم العينين، جهورى الصوت، مستدير اللحية، ولم يظهر بلحيته الشيب إلّا قليلاً.

وكان ملكًا مهيبًا جليلاً مبجلاً فى المواكب، ملء العيون فى المنظر"[1].

وكان يميل إلى الأبهة فى ملابسه ومواكبه، كما كان ميالاً للتنقم، مولعًا بالفنون الجميلة.

قال ابن إياس:

"وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر.

وكان مولعًا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور، وكان ترفًا فى مأكله ومشربه وملبسه، ويحب رؤية الأزهار والفواكه.

وكان مولعًا بغرس الأشجار، وحب الرياضيات، وسماع الأطيار المغردة، ونشق الأزاهر العطرة والبخور.

---

(١) ج ٦ ص ٨٥ حوادث سنة ٩٢٢.

وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء، وكان يستعمل الأشياء المفرحة، وكان نهمًا فى الأكل، وكان يغوى طيور المسموع"[1].

هذه صفات تدل على رقة الطبع، ودقة الأحساس، والولوع بالجمال، والاستمتاع بالعيش.

ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالمًا جبارًا سفاكا للدماء، قاسيًا على الضعفاء.

ونحن نجد فى تاريخ الغورى ما يصدق هذه الخلايا. فأما كلفه بغرس الأشجار والأزهار واقتناء الطيور. وما يتصل بهذا من تشييد الأبنية وتجميلها فسيتأتى بيانه.

حبه الموسيقى والغناء:

وأما ولعة بسماع الموسيقى والغناء ومعرفته بهما؛ فقد اتفق على ذلك المؤرخون وشهدت به سيرته. فهو إذا أراد الاستراحة من عناء الملك خرج إلى مقياس الروضة أو قبة الأمير يشبك، التى فى حدائق القبة الآن، وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين. وكثيرًا ما كان يستصحب المطربين فى أسفاره.

يقول ابن اياس فى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥:

"وفيه كان موكب العيد حافلاً، وأوكب السلطان على العادة. فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان فى اليوم الثانى من العيد، وتوجه إلى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية، وأقام هناك إلى بعد العصر. ووافق ذلك

---

(٦) حوادث سنة ٩٢٢ ص ٨٦.

اليوم بالمطرية، وأقام هنـاك إلى بعد العصر. ووافق ذلك اليوم عـيد النصارى وأول الخماسين، فانشرح هناك، ومد أسمطة حافلة. وحضر عنده جماعة من المغـانى وأرباب الآلات. ورسم لبعض الأمـراء العشـرات بأن يرقص؛ فقـام ورقص بين يدى السلطان فرسم له بمائة دينار".

ويقول فى حوادث المحرم سنة ٩١٨:

"وفى يوم الأحـد وهو يوم عـاشوراء، نزل السلطـان وتوجه إلى نحـو المقياس، وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك، وكان معه جماعة من الأمراء، فأقـام هناك إلى قريب المغرب وانشـرح فى ذلك اليوم إلى الغـاية، ومد هناك أسمطة حافلة. وأحضر بين يديه مغانى وأرباب آلات. ثم ان شخصًا مضحكًا يقال له على باى، الذى يعـمل عفريتًـا فى المحمل، قام فـرقص. ثم سحب الوالى كرتباى فرقـصه، ثم سحب أمير آخور ثانى أقبـاى الطويل فرقصه. ثم سحب بركات بن موسى المحتسب فرقـصه، ثم سحب عبد العظيم الصير فى فرقصه، وكان جسيمًا فضحك عليه السلطان. ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى؛ فـتخاطف ذلك المماليك. وابتهج فى ذلك اليوم".

وفى حوادث ذى القعدة سنة ٩١٨، يذكـر ابن إياس سفر السلطان إلى الفيوم، ويقول فى أثنائه:

"ولما نزل السلطان من القلعة توجه نحـو المقياس وبات به ليلة السبت. فلما طلع النهـار عدى من هناك وطلع على بر الجيـزة وتوجه إلى الوطاق[1]

(١) أصل أوتاق بالتركية موقد النار. وتقال على الدار والمخيم.

الذى نصبه عند الأهرام. وقيل إن السلطان أخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات. فمنهم محمد بن عوينه العواد، وجلال السنطيرى والبوالقة، وأبن الليمونى، وغير ذلك من المغانى".

وذكر الشريفى مترجم الشاهنامة عناية السلطان بالموسيقى، واستصحابه كبار الموسيقيين.

وللسلطان موشحات وألحان كان يغنى بها فى عصره سنذكر بعضها بعد.

ألعابه:

وكان يلهوا أحيانًا بنطاح الكباش والثيران.

يقول ابن أياس فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٢.

"وفى يوم الثلاثاء خامسة، كان ختام ضرب الكبرة بالميدان. فلما انتهى ذلك احضر السلطان ثيران وكباش يتناطحون قدامه".

وفى حوادث ربيع الآخر ٩١٨:

"وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه كان ختام ضرب الكرة بالميدان - وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين[1]. فلما انتهى ضرب الكرة قام السلطان وطلع إلى الحوش وجلس بالمقعد، وأحضروا قدامه ثيران يتناطحون وكباش".

"وفى يوم الأربعاء ثامن رمضان نزل السلطان وتوجه على نحو المطعم

(١) يعنى رسل الملوك.

بالريدانية، وجلس على المصطبة التى هناك، وأطلقوا قدامه الكلاب والصقورة والفهودة، ،أنشرح فى ذلك اليوم، ثم عاد إلى القلعة من يومه".

وكان السلطان مواظبًا على لعب الكرة فى موسم معروف، وكذلك كانت عادة سلاطين المماليك وكثير من ملوك مصر والدول الإسلامية، نجد فى حوادث كل سنة من تاريخ ابن أياس: "وفى يوم كذا بدأ السلطان بضرب الكرة، وفى يوم كذا كان ختم الضرب الكرة".

موائده:

وأما احتفاله بالطعام وموائده: فيظهر من وصف مآدبه للسفراء ولأعيان مملكته، ومن مآدب أعيان الدولة له.

يقول ابن أياس فى حوادث المحرم سنة ٩١٥:

"ومن الوقائع اللطيفة أن فى يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشرة، نزل السلطان إلى الميدان، ونصب به حيمة كبيرة مدورة، وملأ البحيرة التى أنشأها هناك من ماء النيل، من المجراة التى أنشأه، ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك البحرة. وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ. وعلق أحمالاً بها قناديل، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة. وعزم على القضاة الأربعة، وسائر الأمراء من كبير وصغير، وأرباب الوظائف من المباشرين، وأعيان الناس قاطبة. وبات السلطان تلك الليلة بالميدان. وبات عنده الأتابكى قرقماس، وجماعة من الأمراء.

ومد تلك الليلة أسمطة حافلة أعظم من سماط المولد. فمد فى السماط أربعمائة صحن صينى. ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية وكل قطعة نصف

رطل. وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر. ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل، ومن الدجاج ألف طير، ومن الأوز خمسمائة طير، ومن الغنم المعاليف خمسين معلوفًا، ومن الرمسان الرضع أربعين رميسا[1]؛ حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار، بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك، وكانت ليلة مشهودة".

وكذلك نجد أعيان الدولة يسرفون فى الأسمطة التى يحضرها السلطان؛ فقد أدب القاضى كاتب السر محمود بن أجا للسلطان ورجال الدولة عند مقياس الروضة، مأدبة انفق فيها سبعمائة دينار[2].

مواكبه وزينته:

وكان الغورى يميل إلى الأبهة فى زينته وموكبه على شدة حاجته إلى المال.

ووددت أن أمتع القارئ بوصف أحد المواكب بلغة أبن أياس لولا ضيق المجال، فليرجع من شاء إلى الجزء الخامس ص ٢٧٦، ٤٢١.

ولكنى لا أستطيع إغفال زينة من زينات الغورى، يرى القارئ فى وصفها صورة من معيشة القاهرة فى ذلك العصر:

يقول ابن إياس فى الحديث عن ذهاب السلطان إلى المقياس وإقامته هناك يومين فى جمادى الأخرة سنة ٩١٨:

"ثم إن السلطان أوقد فى قاعة المقياس وقده حافلة، باطنًا وظاهرًا،

---

(١) الرميس: الحمل فى لغة بعض البلاد المصرية.

(٢) ابن أياس: جمادى الآخرة سنة ٩١٨.

وعلق أحمال بقناديل فى القصر الذى أنشأه هناك، وعلى شرفات المقياس قناديل فى أحمال أو أمشاط حتى أوقد جامع المقياس والمأذنة.

ثم إن سكان بر مصر[1] وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة[2].

ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وأصرف عليه نحواً من عشرين ألف دينار، فأرسلوا به قبلاه المقياس، وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط؛ فكان الذى وقد فى القياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل. ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقه فكان مصروفها نحواً من مائة وسبعين دينار مثل إحراقه نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة[3]، فشقوا بالنفط من القاهرة وهو مزفوف، وقدامه الطبول والزمور؛ فكان عدة قلاع النفط خمسون قلعة والمواذن ستون مأذنة، وأزيار عشرة، وجرار أربعين جرة، وصواريخ كبار ثلاثمائة، وماويات ألف ومائتين، وشجرات عشرة، وتنانير عشرين، وقطع ألفان، وشعل أربعين. فلما وصلوا بالنفط إلى شاطئ البحر أنزلوه فى خمسين مركب، وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البسطة، ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طلبخاناتهم فى مراكب عند المقياس؛ ففعلوا ذلك. فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات[4] مثل صوت الرعد

(١) يعنى مصر القديمة.

(٢) يظهر أنه البناء القائم اليوم على مقربة من النيل عند فم الخليج.

(٣) يعلم من هذا أن الزينات والألعاب النارية التى تشعل فى حفلات المولد النبوى اليوم بدعة قديمة.

(٤) الكوسات جمع كوس وهو بالفارسية الطبل الكبير.

باب جامع الغورى فى شارع الغورية

القاصف. فلمـا صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطـح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله وأحرقوا قدامه النفط، وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراع. وكانت ليلـة البدر فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين، وهم أربعة وعشـرون مقدم ألف. فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط؛ فـكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيـما تقدم، ولم يقع لأحد من الملوك قـبله مثل هذه الوقاعة، ولا للمؤيـد شيخ ، ولا للناصر فرج بن برقوق".

عماراته:

وأما كلفه بتشييد الأبنية والتأنق فيها؛ فتدل عليه آثاره القائمة اليوم، وما حدث التاريخ عن آثاره التى درست.

أنشأ الجـامع والقبة والمـكتب والسبيل التى فى الـغورية، وجامـعًا عند القلعة، وبـنى خان الخليلى، وخانًـا وأحواضًا فى طريق الحـاج عند العقـبة، ورباطًا ومارستانًا فى مكة، وقصرًا عند المقياس فى الروضة، وأنشأ الميدان عند القلعة، وأحواضًا وأبنية فيه.

وعمر قاعة البـيسرية وقاعة العواميد والدهيـشة فى القلعة، وأنشأ قناطر وأبنية أخرى.

فأما الجامع فلا يزال قائمًـا بالغورية، ملتقى شارع الغورية (الذى سمى شارع المعز لدين الله)، وشارع الأزهر، وتحته السوق المعروفة باسم التربيعة".

وننقل هنا ما يروى ابن اياس فى إتمام هذا الجامع والصلاة فيه أول مرة:

وفى ربيع الآخـر (٩٠٩) فى يوم الجمـعة مـستهلة خطب فى جـامع السلطان الذى أنشـأه فى الشرابـشيين. وقد تم بناؤه وجـاء فى غاية الحـسن

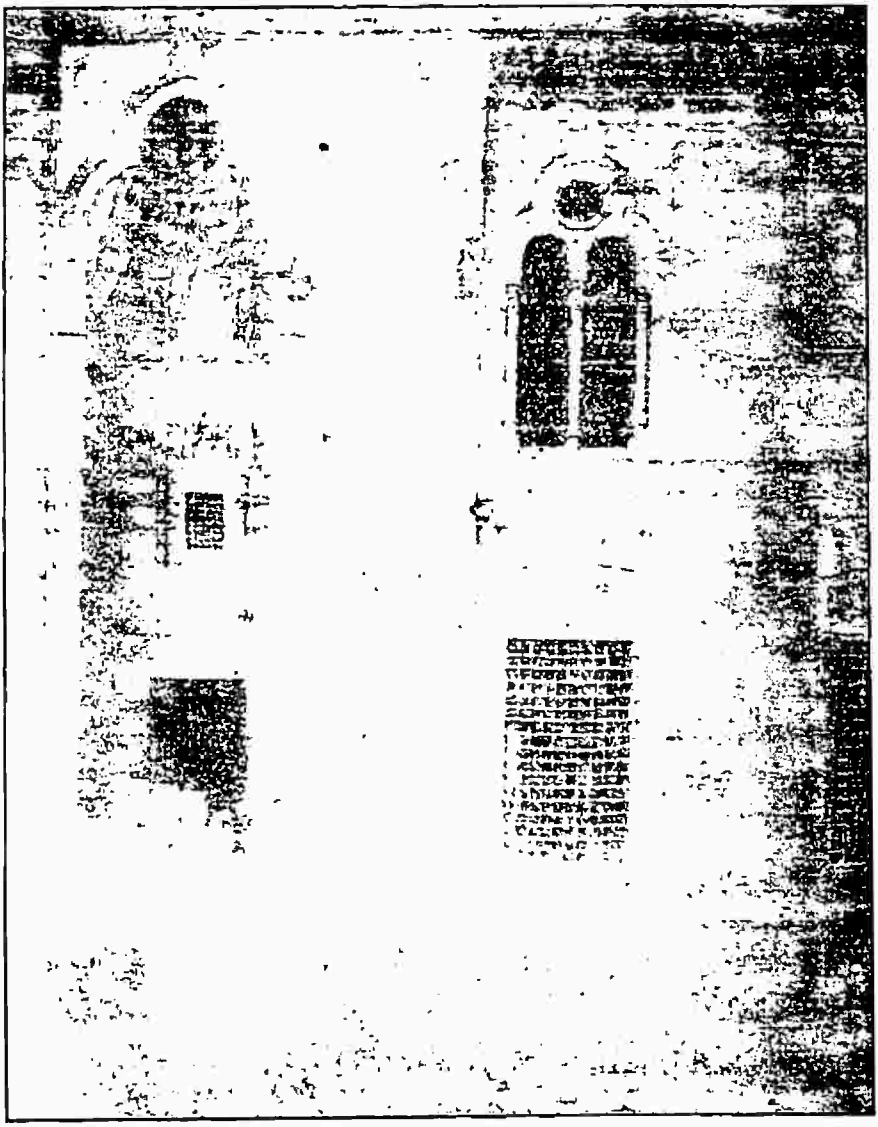

باب قبة الغورى فى شارع الغورية

والتزخرف. وصنع به مأذنه لها أربعة رءوس. وهو أول من اتخذ ذلك. . . فكان أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشافعى. فلبس السواد وخطب، وكان المرقى قدامه القاضى عبد القادر القصروى. وحضر فى ذلك اليوم الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة. وهم برهان الدين بن أبى شريف الشافعى، وعبد البر بن الشحنة الحنفى، وبرهان الدين الدميرى المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى. وحضر غالب الأمراء المقدمين، وولد السلطان المقر الناصرى، وأعيان المباشرين قاطبة، والجم الخفير من الأمراء العشرات والحاصكية، وأعيان الناس، وزينت الشرابشيين فى ذلك اليوم، وكان يومًا مشهودًا، وأخلع السلطان فى ذلك اليوم على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة، كونة حكم بصحة الخطبة فى هذا الجامع. وأخلع على أينال شاد العمارة خلعة حافلة، وأنعم عليه بإمره عشرة، وأخلع فى ذلك اليوم على عدة من المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين وغير ذلك من أرباب الصنائع ممن كان بالجامع. وأنعم على الفعلاء لكل واحد بألف درهم.

ثم فى الجمعة الثانية رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر ابن الشحنة بأن يخطب فى هذا الجامع، فخطب تلك الجمعة خطبة بليغة[1].

وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١١ يقول ابن أياس: "وفيه مالك مأذنة جامع السلطان الذى أنشأه بالشرابشيين. فلما تشققت وآلت إلى السقوط رسم بهدمها. وقد ثقلت من علوها، كون أنها بأربعة رءوس. فلما هدمت أعيدت على الصحة. وقد بنى علوها بالطوب، وضعوا عليه قاشانى أزرق.

(١) ابن أياس ج: ص ٥٨ ، ط استانبول.

وتجاه جامع الغورى يرى الآن بناء آخر يساميه، ويشابهه فيه قبه الغورى وقاعة كبيرة للدرس، وسبيل وكتاب وحجرات قليلة. وتحت هذه الأبنية مخازن، ووراءها فناء به قبول بجانب الجدار القبلى، ويؤخذ من أبن أياس أن بعض زوجات السلطان وأولاده والسلطان طومان باى بأى الأخير دفنوا هناك.

وفى ابن أياس أخبار كثيرة عن أبنية الغورى. ومما قاله عن المدرسة:

"ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك؛ منها بأنه نقل الآثار الشريف النبوى من مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل فجعله فى مدرسته حتى عد ذلك من النوادر.

وقد تعب الصاحب بهاء الدين بن بحنا فى نقل هذه الآثار الشريف، وكان عند جماعة من بنى إبراهيم بالينبع، فلا زال يتطلف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهما بالدراهم القديمة، ثم نقله إلى الديار المصرية وبنى له مسجداً مطلاً على بحر النيل[1]. وكان الناس يقصدون الزيارة إليه فى كل يوم أربعاء. فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان به الآثار الشريف استفتى السلطان العلماء فأفتوه بنقله إلى مدفنه بالقبة وهذا بخلاف شرط الواقف. ثم أن السلطان نقل المصحف العثمانى إلى مدرسته أيضًا[2] وعد ذلك من النوادر. ثم نقل إلى المدرسة أيضًا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى كانت بالخانقاه البكتمرية التى بالقرافة. قيل أن مشتراها على الواقف ألف دينار. ولم يكتب نظير هذه الربعة سوى ربعة أخرى بخانقاه سرياقوس اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضًا، وأخرى بالمدينة الشريفة.

---

(١) أظنه المسجد المطل على النيل فى الساحل المسمى أثر النبى.

(٢) يذكر هذه المصحف فى كتاب الكوكب الدرى ص ٤٤ وأظنه المصحف المحفوظ فى الجامع الحسينى اليوم.

صورة قديمة تبين الشارع بين جامع الغورى والقبة. رسمها بعض السائحين وترى فيها السقيفة التى كانت فوق الشارع

وقد وقع للأشرف قـانصوه الغورى فى مدرستـه من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود.

ولما نقل الآثار الشريف والمصحف العثمانى إلى مدرسة السلطان كان له يوم مشهود ونزل قـدامه القضاة الأربع والأتابكى قيت، وجـماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا والأعلام وهم يذكرون. . .

وفى ذلك اليوم أخلـع على الشيخ برهان الدين ابن أبى شـريف وقرره فى مشـيخة هذه المدرسـة. وقد صرف عن قـضاية القضـاة، وأنفرد بمشيـخة مدرسة السلطان واستمر بها إلى الآن"[1].

ويصف الشريفى الشاعر، الذى ترجم الشاهنامـة إلى اللغة التركية بأمر الغورى، عمارات السلطان وصفًا شعريًا يدور على الخيال والمبالغة، ولكنه ينم عن حـقائق. فـهو يصف القـبة ويبـين علوها، وأنهـا لونت باللون الأزرق. ويصف الجامع والسـوق التى تحته، ويصف الخـانقاه التى بجانب القـبة وهى القاعة الكبيرة الجميلة التى إلى يسار الداخل. ويقول فى هذه الخانقاه: " يقرأ فيها العلم الألهى، ويتلى القرآن والأوراد فى الأسحار، ولها شيخان وثمانون صوفـيا يقـرءون مرتين كل يوم، وبهـا مائتـان من أصحـاب الوظائف (يعنى الجرايات) منهم من يعطى الخبز كل يوم ومنهم من يعطى وظيفته مشاهرة[2].

ويقول فى السبـيل الذى يلاصق الخانقاه: "وبجانب الخانقاه سـبيل كأن ماءه سلسبيل، يشرب الناس منه ليل نهار وفيه خدام لا يغيبون نهارًا ولا ليلاً؛ فإذا غاب أحد السقاة أناب غيره".

---

(١) ابن أياس حوادث جمادى الأولى سنة ٩١٠.

(٢) انظر كذلك كتاب نفائس المجالس ص ٦٠.

باب من آثار الغورى يرى اليوم فى شارع الصليبة

متصلا بدار أحمد بك إحسان

ويقول فى المكتب الذى فوق السبيل: "وبنى فوق السبيل مكتبًا يقرأ فيه الأيتام إلى العصر، وفيه مؤدب يعلمهم ويربيهم".

وكذلك نجد الكلام عن عمارات السلطان فى كتاب النفائس[1].

ولعه بالحدائق والأزهار:

وأماه ولعه بالحدائق والأزهار وإجراء المياه فى الحدائق واتخاذ الحواض والنافورات فيدل عليه ما فعل فى ميدان القلعة.

وهذا الميدان وصفه الشاعر الشريفى، وذكره ابن أياس كثيرًا. يقول فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٤:

"وفيما كان انتهاء العمل من المجراة التى أنشأها السلطان كما تقدم فدارت هناك الدواليب وجرى الماء فى المجراة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة.

ثم إن السلطان صنع هناك سواقى نقالة، وبنى ثلاثة صهاريج تمتلئ من ماء النيل برسم المماليك الذين يلعبون الرمح فى الميدان، وشرع فى بناء بحرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان فكان طول تلك البحرة نحوًا من أربعين ذراعًا، وقيل أكثر من ذلك. وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان".

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥.

"وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان وأخرجت ما شتله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك

(١) ص ١٢٦ وما يليها.

من الأزهار الغريبة. ولقد عاينت به وردًا أبيض ذكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر.

فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطمعة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل ينطع، ويجلس عليه، وتظله فروع الياسمين، وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه. ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع. ويطلق بين الأشجار دجاج حبش وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة - إلى أن يقول - وقد صار هذا الميدان جنة على الأرض".

تدينه وبره بالفقراء

كان الغورى دينًا محافظًا على فروض الدين، شديدًا على من يفرط فيها، وكان يعد من علماء الدين فى مصر. كما يتبين فيما يأتى.

وكان كلما حزبه أمر أو حلت بالبلاد قارعة أو خشى عليها نازعة فزع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى قراءة القرآن والحديث والدعاء، والبخارى يقرأ فى رمضان ويختلف بختمه فى القلعة، وهى سنة قديمة.

يقول ابن أياس فى حوادث رجب سنة ٩١٥:

وفى رجب نادى السلطان بألا يتجاهر الناس بالمعاصى، ولا يمشى بسلاح بعد المغرب، وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس فى الجوامع.

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ أن النيل زاد فى هاتور ثمانية أصابع

فتضرر الناس، "فرسم السلطان للقضاة الأربع بأن يتوجهوا إلى المقياس، ويدعوا إلى الله تعالى فى هبوطه. فتوجهوا هناك وباتوا بالمقياس. وقرأ السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة حافلة، فأنهبط فى تلك نحو من نصف ذراع. فعد ذلك من الوقائع الغريبة".

ويصف الشريفى صلاة السلطان وتهجده بالليل ودعاءه، فى خاتمة الشاهنامة[1].

وكان برا بالفقراء كثير الصدقات. أنشأ رباطًا ومارستانًا فى مكة ورباطًا فى مصر، وأجرى فيها الصدقات.

كان يحب أن يتصدق على الفقراء بيده؛ نجد فى ابن أياس مثل هذه الحوادث:

المحرم سنة ٩١٢: "وفيه فى يوم عاشوراء أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء والحرافيش ونزل السلطان بنفسه ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج، وصار يعطى لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة وكبير وصغير اشرفى ذهب، فوقع الأزدحام بين الفقراء حتى قتل منهم ثلاثة أنفار، من شدة ازدحامهم، فكان كما يقال فى المعنى.

فيالك من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل.

وقيل أنه فرق فى ذلك اليوم نحوًا من ثلاثة آلاف دينار فارتفعت الأصوات له بالدعاء. فلما رأى ازدحام الفقراء لم ينزل مرة أخرى ولم يفرق شيئًا، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى".

(١) س ١١٦٣ - ٦٤.

فى رمضان سنة ٩١٥ : "نزل السلطان إلى الميدان فوقف إليه جماعة من المغاربة نحو من سبعين إنسان ما بين رجال ونساء وقد قصدوا الحج فى هذه السنة، فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحدٍ منهم ثمن بقسماط".

وفاؤه:

وكان وفيًا برًا بأصحابه وأولياء نعمته؛ بقى طول عمره يذكر سيده قايتباى بالخير ويعظمه. قال ابن أياس فى حوادث ذى القعدة سنة ٩١٥ : "نزل السلطان وسير وتوجه إلى نحو تربه الأشرف قايتباى فنزل عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على قبره، وقرأ له الفاتحة ثم رسم للبوابين وللصوفية بمائة دينار".

ونجد فى كتاب النفائس تعظيمه قايتباى[1].

ونجد فى موضع آخر حزنه على أحد رجال دولته وهو الأشرف قرقماس. يقول ابن أياس فى وصف جنازته (رمضان سنة ٩١٦): " فلما وصل إلى سبيل المؤمن خرج السلطان من الميدان وهو راكب وأتى إلى سبيل المؤمنى، فنزل عن فرسه ودخل للصلاة؛ فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله وهو فى النعش وبكى عليه بكاء كثيرًا. فلما صلوا عليه حمل نشعه ومشى به خطوات حتى أخذوه منه الأمراء".

محاسن الغورى كما أجملها ابن أياس:

يقول ابن أياس فى حوادس رمضان سنة ٩٢٢ : "فأما ما عدا من محاسنه؛ فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب، وليس له بادرة

---

(١) النفائس ص ١١١.

بحده عند قـوة خلقه. ومنها أنه كان له اعـتقاد زايد فى الصالحـين والفقراء. ومنها أنه كان يعـرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم. ومنهـا أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غـضبه. ومنها أنه كان يفـهم الشعر ويحب سمـاع الآلات والغناء، وله نظم على اللغـة التـركية. وكـان مغـزمًا بـقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار. وكان قريبًا من الناس يحب المزاج والمجون فى مجلسه[1]، غير كـثيف الطبع فى ذاته. وكان عنده لين جـانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس".

مساوئ الغورى:

كان الغورى فى حاجة إلى مال كثير ينفق منه على الجند ليسكن ثوراتهم المتكررة، وليـزود الجيوش التى يرسلهـا إلى أطراف المملكة وإلى الهند، كـما يتفق فى بناء الأسـاطيل. وكانت التجارة قـد كسدت بما أخاف الفـرنجة سبل البحار. وفى صفحات ابن أياس أمـثلة من الحادثات التى أكسدت التجارة فى عهد الغورى؛ فى حوادث المحرم سنة ٩٢٠:

"وكـان فى تلك الأيام ديوان المفـرد وديوان الدولة وديوان الخـاص فى غـاية الأنشحـات والتعـطيل. فإن بندر الإسكنـدرية خراب ولم تدخل إليـه البـضائع فى السنة الخـالية، وبندر جـدة خراب بسـبب تعبث الأفـرنج على التجـارة فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبـضائع إلى بندر جـدة نحوًا من ستة سنين. وكذلك جهة دمياط".

ويقول فى حـوادث ذى الحجة من السنة عـينها، أثناء الكلام فى سـفر السلطان الغورى إلى الإسكندرية يؤمئذ أحد من أعيان التجارة لا من المسلمين

(١) انظر بعض فكاهاته فى الكواكب الدرى ص ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٦.

ولا من الفرنج، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجود القباض؛ فأنهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال فامتنع بحار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر؛ فتلاشى امر المدينة وآل أمرها إلى الخراب حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح".

لهذه اشتدت حاجة السلطان إلى المال واشتد حرصه على جمعه وكثرت مصادراته، وأسف فيها إلى درك لايلائم همته وسيرته.

يقول ابن أياس فى حوادث جمادى الأولى سنة ٩١٦:

"وفى هذه الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين، حتى إنه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة، وقرر عليهم مال له صورة وقال لهم أنتوا عملتوا كيمان تراب تحت القلعة من عفشكم ما يشتالك ولا بعشرة آلاف دينار، وجعل ذلك حجة عليهم".

وفى حوادث رمضان سنة ٩١٨:

"وفيه كان ما وقع لرئيسه المغانى، وهى امرأة يقال لها هيفة اللذيذة. وقد رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المال، ولها حلة للكبرا. فلما سمع السلطان ذلك قبض عليها وأقامت فى الترسيم، وعرضت للضرب غير مامرة، وقرر عليها خمسة آلاف دينار؛ فباعت الحلى وجميع ما تملكه وأوردت ألف دينار. وقد تكلم لها القاضى بركات بن موسى بأنها لا تملك غير ذلك فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد فى كل شهر مائة دينار على كل جامكية[1]. وقد طفل السلطان نفسه إلى مصادرة المغانى أيضًا والأمر لله".

(١) الجامكية ما يرتب للجند وغيرها من المال أو الطعام واللباس وأحسبه مأخوذًا من لفظ الجبة بالفارسية.

وكان المال وسيلة إلى المناصب حتى مناصب القضاء أحيانًا. فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٠:

"وفيه أخلع السلطان على شخص يقال له طراباى. وكان طراباى هذا ولى الأتابكية بحلب، ثم حضر إلى مصر وسعى فى نيابة صفد بمال له صورة حتى تولاها".

وفى ذى الحجة سنة ٩٠٦:

وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل قاضى القضاه زين الدين زكريا الشافعى عن القضاء، وهذا كان آخر عزله وولايته، وقد كف بصره عقب ذلك.

فلما عزل زكريا سعى محيى الدين بن عبد القادر بن النقيب فى عوده إلى القضاء. وقد أورد مال له صورة. فأخلع عليه، وأعيد إلى القضاء".

وأكثر مساوئ الغورى ترجع إلى كثرة نفقاته وقلة دخله واضطراره إلى أخذ الأموال بكل الوسائل.

وإذا رجعنا إلى ابن أياس نجد جل المساوى التى ذكرها، من هذا القبيل[1]. ولولا هذه الضرورات لبرئت سيرة هذا الرجل الهمام مما اقترف من هذه المصادرات.

مكانة الغورى من معارف عصره:

لم تكن المعارف منتشرة مزدهرة فى مصرى فى عصر الغورى. وإذا نظرنا إلى الأبحاث والمجادلات التى كانت فى مجالس هذا السلطان، عرفنا

(١) حوادث رمضان سنة ٩٢٢.

ضيق الأفكار وقلة المعارف، والولع بسفاسف الأمور والقصور عن جلائلها.

ولكن ينبغى ألا نعد هذه المجالس مصورة معارف علماء مصر فى ذلك العهد، فإن كبار العلماء كانوا يتورعون عن هذه المجالس. فقد عاش بمصر فى عصر الغورى علماء كبار مثل جلال الدين السيوطى، والسخاوى، والقسطلانى، وزكريا الأنصارى، ولم تذكر أسماؤهم فى هذه المجال؛ بل القضاه الأربعة الذين يذكرون كثيرًا فى شئون ذلك العصر، ولهم بالدولة والسلطان صلة مستمرة، قل أن يذكر أحدهم فى مجالس الغورى.

ويتبين من تاريخ الغورى، ومن أقواله التى يتضمنها الكتابان: نفائس المجالس والكوكب الدرى، ومما كتبه الشريفى مترجم الشاهنامة، أن السلطان كان ذا حظ من العلوم الدينية: التوحيد والفقه والتفسير، مشاركًا فى علوم العربية: النحو والبلاغة وغيرها، وأنه كان مولعًا بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص، وأنه كان ذا ملكة يتفهم بها الأدب وتزين له أن يشارك فى النظم أحيانًا، وأنه كان مولعًا بالموسيقى والغناء، وكان له نظم وألحان يتغنى بها، وأنه كان يعرف لغات عدة.

وعناية السلطان بالعلم والأدب ومشاركته فيهما، وولعة بمطالعة الكتب، مهدت السبيل لمبالغة المادحين، وتخيل الشعراء.

يقول الشريفى فى خاتمة الشاهنامة:

له سوز أكلسة علم ومعرفتدن

سن أنك عارفيسن هرجهتدن

دلك هر معرفتدن أولدى محظوظ

ضـميـر كدر صناسن لوح مـحفـوظ

"ما تذكر كلمة من العلم والمعرفـة إلا أنت محيط بها. وقد أوتى قلبك حظًا من كل معرفة، كأن ضميرك اللوح المحفوظ".

ويقول:

نه فن أولـــــه سنك أنده ألك وار

له يردن سـوز آجلسـة مـدخلك وار

نجـه مـــشكل كـه أورلـز أكـا أل

ســن إيـدرسـن أنى إدراكـلـه حـل

أكـر إنشـأ أكـر شـعـر وغـز لدر

أكـــر علم وأكـــر بحث وجـــد لدر

كـرورز طابك أنـده بحـر زاخـر

سـزوكـه خلق حيـران أول آخـر[1]

" لك يد فى كل فن، لك مشـاركة فى كل موضـوع، وكم مشكل لا تناله الأيدى حلـلتـه بإدراكك، الإنشـاء والشـعـر والغـزل والعلم والبـحث والجدل، كل هذه نراها فيك بحرًا زاخرًا. لقد تحيّر الخلق فيك".

وفى مقدمة الكتابين الآتيـين ما يبين عن غلو المؤلفين فى مدح السـلطان بالعلم وسعة المعرفة[2].

(١) الشاهنامة ص ١٦١ ، ٦٢.

(٢) انظر كذلك الكواكب الدرى ص ٤٢.

فأما مشاركته في العلوم الدينية، فدليلها في صفحات الكتابين، لا تخلو منه بضع صفحات متتابعة. ولست في حاجة إلى التمثيل هنا؛ فحسب القارئ أن يلقى نظرة على بعض الصفحات. وفي الشاهنامة مدح السلطان بمعرفة الفقه والتفسير وأنه يديم مطالعة التفاسير.

وأما مشاركته في علوم العربية فتدل عليها بعض المجالس، كالمجلس الثامن من كتاب النفائس[1]، والسؤال الذى في آخر صفحة ٦٣ من الكواكب الدرى.

وأما ولوعة بالتاريخ والسير والقصص؛ فقد أخبرنا به ابن أياس[2] وقد اخبرنا به كذلك الشريفى مترجم الشاهنامة، يقول:

تواريخ وحكايا تيله أخبار اقينر صحبتندة جملة تكرار

"تقرأ في صحبته دومًا التواريخ والحكايات والأخبار".

ويقول في سبب ترجمة الشاهنامة، إن السلطان كان مولعًا بالقراءة وعنده خزانه فيما ضروب الكتب. وكان فيها نسخة من كتاب الشاهنامة، فأمره بترجمتها إلى التركية إلخ.

وفي الكتابين اللذين نقدم لهما هذه المقدمة ما يصدق قول أبن أياس والشريفى. ومن أمثلة هذه ما في صفحة ٦٦، ١٣٠ من كتاب النفائس. وفي الكواكب الدرى أن إسماعيل الصفوى أهدى إلى الغورى كتاب تاريخ التتار[3].

---

(١) النفائس ص ٢٠.

(٢) حوادث رمضان سنة ٩٢٢، وص ٢٣ السابقة.

(٣) الكواكب ، ص ٧٣.

وأما بصرة بالشعـر والغناء والموسيقى، وقدرته على المشاركة فيـها؛ فقد أخبرنا بهـما أبن أياس والشريفى متـرجم الشاهنامة، ودل عليهـما ما أثر من نظم السلطان وموشحاته.

فأما ابن أياس؛ فقد نقلنا أنفًا قوله، وهو يعدد محاسن الغورى:

"ومنها أنه كـان يفهم الشـعر ويحب سمـاع الآلات والغناء، وله نظم على اللغة التركية"(١).

وأما الشريفى، فقـد قدمنا قوله فى معرفة السلـطان الشعر والإنشاء(٢) ونزيد هنا قوله فى مقدمة الشاهنامة(٣):

نه فن أو لرأسه أند ندر خـبير أول

هرايشـده تكرى كـسترمش أكـايول

بار شـعـر ومـعـمى فننى خـوب

غـزل إنشـا إدر دركـيـبى مـرغـوب

نبـيك مـدحتـى توحـيـد بارى

دمش كم كـيـدر أيـشـيـدن قـرارى

"ما كان من فن فهـو خبير به، قد هداه الله فى كل أمر طـريقًا. يجيد فن الشعر والمعمى، وله غزل مرغوب كالدر.

وقد قال فى توحيد البارى ومدح النبى ما بلغ به الغاية".

---

(١) ص ٣٣ الـسابقة.

(٢) ص ٤٠ الـسابقة.

(٣) الشاهنامة التركية ص ٩.

وفى كتاب النفائس ذكر موشحين من موشحات السلطان[1].

وبين أيدينا نماذج قليلة من نظمه، وعسى أن يهدى البحث إلى منظومات أخرى، وفيما يلى إجمالى الكلام فيما لدينا من نظمه:

١ - موشح ملمع أثبته صاحب كتاب نفائس المجالس فى آخر الكتاب. وهو عشرة أبيات، أوله:

يا إلهى بن كنه كار؛ أنت غفار الذنوب.

عيبمى يوزيمه أورمه؛ أنت ستار العيوب.

قاموا إشارسا كه معلوم؛ أنت علام الغيوب.

بن فقييرية قل عنايت؛ أننى أرجو رضاك.

٢ - وقصيدتان وموشحان بالعربية وموضح تركى أثبتها الشيخ محمد راغب الطباخ فى كتابه تاريخ حلب، من مجموعة من شعر الغورى عند بعض أدباء حلب.

بالملك أنعم ربنا الرحمن وهو الكريم المنعم المنان

فله علينا الشكر حق واجب يقضيه قلب مخلص ولسان

يذكر فى هذه القصيدة أمراء دولته وجنده، ويدعو الله أن يؤلف قلوبهم، ويجمعهم حوله.

والقصيدة الثانية ثلاثة وعشرون بيتًا، وأنشأها فى نصف شعبان، وفيها حث على إحياء ليلة النصف، ودعاء له ولجنده ورعيته. وأولها:

---

(١) النفائس ص ٦٣ ، ٦٤.

لله فى أيامنا نفحات من دهرنا تزكونها الأوقات

فيها ألا فتعرضوا وتضرعوا فيها، تجاب لكم بها الدعوات

هذى مواسمها لنا قد أقبلت ودنا بموعدها لنا ميقات

وأحد الموشحين العربيين من نغم الحسينى، وهو عشر أبيات. وأوله:

ربنا أدم لنا نعمًا جدت لى بها كرمًا

فيضها حكى ديمًا بالغمام منهلة

والثانى كتب فوقه: "من نغمة المصرية علو محير يهبط على عشاق العجم".

وهو اثنا عشر بيتًا أولهما:

جل من لنا وهبا ملك مصر وأكتسبا

حيث سبب السببا فى قديم علم الله

والموشح الثانى ملمع بين العربية والتركية، وهو عشرة أبيات أولها:

كز لرم يا شينه رحم أيت يا رحيم

سائلى رد أيت يا رحيم

سائلى رد ايلمز هركز كريم

رب هب لى من لدنك رحمة

تب علينا أن تواب رحيم

حق جمالن استرز، جنت ندر؟

كورنر جنت بزة انسز جحيم الخ.

صفحة العنوان من كتاب الشاهنامة التركية

وأما معرفة اللغات فالعربية والتركية لا تحتاجان إلى بيان وقد ذكر الشريفى فى الشاهنامة معرفته الفارسية. وروى مؤلف النفائس أن السلطان قال فى أحد المجالس أنه يعرف كثيراً من الألسن، وعد سبع لغات[1].

الغورى والشاهنامة:

قدم إلى مصر أحد شعراء التركية فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر، وهو رجل عربى الأصل شريف النسب اسمه حسين بن حسن بن محمد الحسينى الأمدى، ولعله فر إليها، إذ كان من المقربين إلى الأمير جم أبن السلطان الفاتح. وبقى فى مصر حتى توفى سنة ٩٢٠. ولا ندرى متى قدم إلى مصر، ولكنا نعرف أنه اتصل بالسلطان أو سنة من ملكه، فأمره بترجمة إلى التركية، مع أن السلطان يعرف الفارسية.

ولا ريب أن السلطان أراد أن يقرن أسمه بهذا الكتاب الخالد، كما اقترن به اسم السلطان محمود الغزنوى، الذى قدم إليه الأصل الفارسى، وكما اقترن به اسم الملك المعظم الأيوبى الذى أمر بترجمته إلى العربية.

فى مقدمة الكتاب وخاتمته نحو الألف بيت. ويبدأ المؤلف بالتحميد ومدح الرسول والخلفاء، على سنة شعراء الفرس والترك، ثم يكر سيرة مماليك مصر منذ سنة ٩٧٠هـ؛ يذكر قايتباى والملوك الذين خلفوه فى فترة الاضطراب التى بينه وبين الغورى، ثم يفيض فى مدح السلطان، ثم يبين سبب نظم الكتاب، ثم يشرع فى ترجمة الشاهنامة. وفى الخاتمة يمدح السلطان ويبين أنه نظم الكتاب اسمه واتمه فى دولته، ويتكلم عن أخلاق السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب، ومعرفته لغات كثيرة، ومشاركته فى

(١) نفائس المجالس ص ١٣٢.

الإنشاء والشعر، ونظمه فى توحيد الله ومدح الرسول، وإلمامه بالموسيقى، ونظمه موشحًا للغناء، وولعه بقراءة التواريخ إلخ. . . ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم، ويذكر المغنين والموسيقيين الذين يطربون السلطان فى مجالسه.

ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفًا مفصلاً، فيعدد تسعًا منها.

والخلاصة أن فى مقدمة الكتاب وخاتمته ما يكشف عن بعض تاريخ الغورى، ولا سيما الجانب الأدبى منه، ويبين طرفًا من تاريخ مصر، بعد حساب المبالغات الشعرية.

مجالس السلطان الغورى:

يقول الشريفى، ناظم الشاهنامة باللغة التركية، فى مقدمة الكتاب:

شهـا خوش مـجلسك وارد جنب آرا

أو مـجلسـده قـمـونسنه مـهـيـا

حـقـيـقـتـده علومك منبـعى در

د كل شك أول أفـاضل مجمـعى در

أو مـجلسـده أولر مـشكل لر آسـان

نه مـجلس كـم أودر باغ وكلسـتـان

أقـينر أنـده هر دلجـه عـبـارت

أولر قـانونلـه رمـز وإشـارت

"ما أجـمل مجلسك أيها السلطان، إنه يشبه الجنة، كل شئ مهيأ فى

هذا المجلس، إنه فى الحقيقة منبع العلوم، ومجمع الأفاضل بلا ريب. مجلس تيسر فيه المشاكل. أى مجلس هذا؟ إنه حديقة وبستان تقال فيها العبارات بكل اللغات. وتسير على قانونه الرموز والإشارات".

كان للسلطان مجالس تجمع العلماء والكبراء، وتطرح فيها للبحث مسائل شتى.

وقد سجلت كثيرا من مسائل هذه المجالس فى كتابين يصوران تصويرا حسنا كثيرا من أحوال مصر فى عهد السلطان الغورى:

١ - كتاب نفائس المجالس السلطانية، فى حقائق الأشرار القرآنية: ألفه حسين بن محمد الحسينى، وهو شريف كما يؤخذ من اسمه ومن عبارات فى ثنايا الكتاب، ويظهر أنه ساح فى إيران والبلاد الشرقية. وهو يعرف التركية فقد نظم بيتين بالتركية فى رثاء ابن السلطان الغورى، وروى من شعر حسين بيقرا[1] وفد على مصر فأقام عشرة أشهر شهد فيها مجالس السلطان الغورى، وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان السلطان والعلماء يتكلمون فيها.

والعجمة ظاهرة فى كتابته حتى اسم الكتاب؛ فقد سماه "نفايس مجالس السلطانية فى حقائق أسرار القرآنية"، فحذف اللام من المجالس والأسرار.

والنسخة التى بأيدينا هى النسخة التى كتبت للسلطان وأهديت اليه.

وقد جعل المؤلف كتابه فى مقدمة وعشر روضات والمقدمة قصيرة

---

(١) النفائس ص ٢١، ١٣٤.

تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغورى. والروضات العشر يذكر فى كل واحدة منها مجالس السلطان فى شهر. وكانت المجالس تجتمع فى كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثا.

وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائه. وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر، وآخرها مجالس رجب. فهى عشر روضات فى أحد عشر شهرًا؛ لأن السلطان لم يجلس فى شهر ذى القعدة لوفاة ولده محمد.

والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته، ويذكر الإمام الذى يحضر المجلس وكبار الحاضرين، ثم يذكر المسائل التى طرحت للبحث فى المجلس.

يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرتضى السلطان جوابه أو يناقشه، وأحيانًا يبدأ أحد الحاضرين الكلام. وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية ومنها ألغاز فى موضوعات شتى، وقصص عن الملوك وغيرها.

وأحيانًا يصف محافل السلطان. يصف، مثلا، إحياء السلطان الولد النبى، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا، وما فعلوا فى هذا المحفل، ويبين كيف جلس السلطان ليلا وكيف يتقدم إليه كبار الدولة وينشد كل منهم شعرا فى مدحه وكيف يقابلهم السلطان. وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم "وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض" وأنشده:

إن الخلافـة ثوب قد خـصصت به

إذا لست فـلم يفـــضل ولم يعـــز

ما أودع الله فى أحد احداقنا بصرا

إلا لنفـــرق بين الـدر والخـــرز[1]

وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر فى التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: "الجرس من الغساسنة فهم عرب" وكالبحث فى شروط الإمامة فى مجلس السلطان وقول مؤلف الكتاب: فإن لم يوجد من يستوفى الشروط من ولد إسماعيل جاز أن يولى واحد من العجم أو من ولد إسحاق، وقوله بعد هذا: الحمد لله والمنة، والجركس من ولد إسحاق وجميع هذا الشرائط موجودة فى السلطان الأعظم[2].

بل نجد فى الكتاب بحثًا صريحًا فى نيابة الغورى عن الخليفة العباسى، هل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه فى الأمور الشرعية، ويشتد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء فى هذه المسألة، فيحقر المؤلف الخليفة ويعظم السلطان، ثم يذهب يستفتى العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة[3].

ويرى القارئ أحيانًا اهتمام السلطان بتعليم المماليك وإحضارهم من حيث إلى آخر إلى مجلسه، ليقرءوا أمامه ويمتحنهم[4].

---

(١) النفائس، مجالس ربيع الأول.

(٢) النفائس ص ١٠٨

(٣) النفائس ص ١٠٠ فما بعدها.

(٤) النفائس ص ٦٦، ١٣٠.

هكذا يجد القارئ فى الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها فى كتب التاريخ، ويرى صورًا من آراء السلطان وعلماء عصره، ويتبين مقدار اطلاعهم ومدى تفكيرهم.

٢ - والكتاب الثانى اسمه الكوكب الدرى فى مسائل الغورى، وهو يحتوى على ألفى مسأل وأجوبتها من المسائل التى وقع البحث فيها فى مجالس السلطان الغورى أيضا. ولدينا الجزء الأول من الكتاب وفيه ألف مسألة فى ٣٣٨ صفحة. والنسخة مكتوبة فى عهد الغورى. ويظهر أنها نسخة المؤلف. وعليها خطوط ثلاثة من علماء وقته المعروفين يشهدون بأنهم اطلعوا على الكتاب منهم عبد البر ابن الشحنة قاضى قضاه الحنفية. وبعض هذه الخطوط مؤرخ بالسنة التى تم فيها كتابة هذا الجزء.

ويقول المؤلف فى آخر الكتاب: "وكان الفراغ منه فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة تسع عشر وتسعمائة".

وفى مقدمة هذا الكتاب شبه بمقدمة الكتاب الأول، وبعض عباراتهما واحدة، وبين تاريخهما زها عشر سنين.

وفى الكتابين مسائل مشتركة مثل سؤال نكاح الشبهة، والإكراه على سب النبى[1].

وهذا الكتاب ليس مقسما على المجالس كالكتاب السابق، بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل. والمطلع على الكتاب يرى صورا من أفكار علماء مصر وأمرائها فى ذلك العصر؛ يرى إلى المسائل الدينية، وهى معظم الكتاب،

(١) الكوكب الدرى ص ٥٢، ٨٣.

مسائل تاريخية، وجغرافية. ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عمن بنى الأهرام، أو عن زرقة السماء[1]، أو السؤال عن كيومرث أول ملوك الشاهنامة أكان قبل نوح أو بعده[2]، أو عن شهر المحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجرى، أو هل الأرض أفضل أم السماء. ويجد القارئ فى الحين بعد الحين فكاهة من السلطان أو نادرة، ويعرض فى المجالس ذكر الملوك المعاصرين والأمراء الذين وفدوا على السلطان كأبناء بايزيد وسليم. ويرى بعض الأسئلة الدينية التى سألها هؤلاء الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه.

لا ريب أن هذا الكتاب، على تفاهة معظم المسائل التى يدور عليها البحث، يصور بعض النواحى الفكرية والاجتماعية فى مصر والعالم الإسلامى فى ذلك العصر.

* * *

(١) الكوكب الدرى ص ٥٤، ٨٨.

(٢) الكوكب الدرى ص ٩٠.

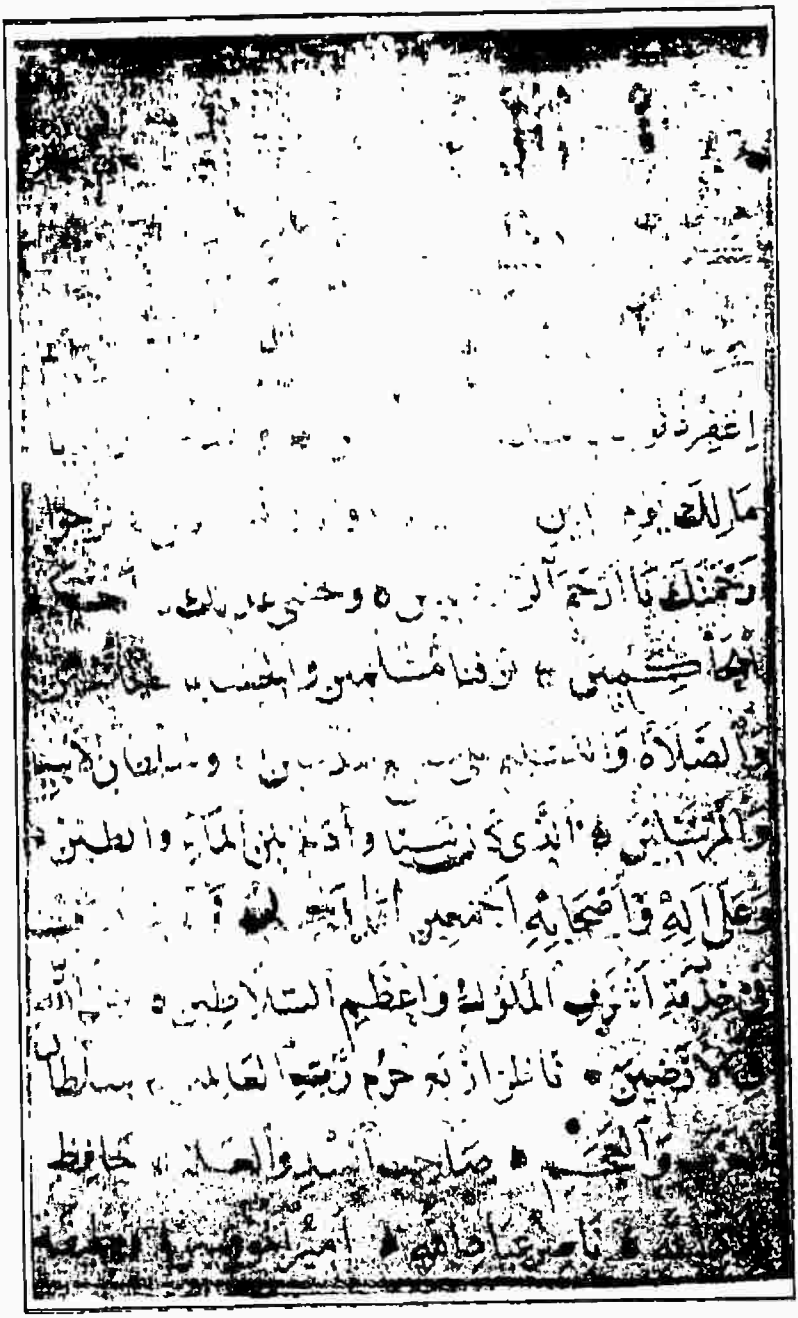

الصفحة الأولى من كتاب نفائس المجالس

الصفحة الثانية من كتاب نفائس المجالس

كتاب نفائس مجالس السلطانية

فى

حقائق أسرار القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

اغفر ذنوبنا يا سلطان السلاطين، واستر عيوبنا يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، نرجو رحمتك يا أرحم الراحمين، ونخشى عذابك يا أحكم الحاكمين، توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

والصلاة والتسليم على شفيع المذنبين، وسلطان الأنبياء والمرسلين، الذى كان نبيا وآدم بين الماء والطين، وعلى آلة وأصحابه أجمعين.

أما بعد. فإنى لما تشرفت فى خدمة أشرف الملوك وأعظم السلاطين، ظل الله فى الأرضين، ناظر أربع حرم رب العالمين، سلطان العرب والعجم، صاحب البند والعلم، حافظ بلاد الله، ناصر عباد الله، أمين المؤمنين وخليفة المسلمين. ملك الأشرف عزيز مصر، أبو النصر، قانصوه الغورى، أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره. ولازمت بابه الشريف، مدة عشرة أشهر، جمعت درر فوائده فى سمط العبارة، ونظمت جواهر زواهره فى خيط الكتابة. لأن بابه الكريم مجمع الأفاضل، وجنابه العظيم بحر الفضائل والفواضل، هذا مع ما خصه الله تعالى من الفضائل النفيسة، والمناقب الشريفة اللطيفة. أعطاه من الفهم أوفره، ومن الذهن أغزره، ومن الحلم أشرفه، ومن العلم ألطفه، ومن الرتب أقواها، ومن الملك أعلاه، ومن الشجاعة أبلغها، ومن السخاوة أعظمها. كل هذه الصفات خصه الله تعالى بمجموعها، ولهذا ارتقى إلى الذروة (العالى، التى كانت نهاية درجات الأفاضل الأهالى)، وفضل هذا السلطان على سلاطين الدنيا، كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا.

وكل هذه الأوصاف والمناقب بما قرن به من محبة العلم والعلماء،

والتفتيش عما وضعته الحكماء فى كل نوع من العلوم، لو يقول البشر فى وصف هذا المظهر[1]، أنه هو سلطان العلماء والمحققين ما هو كذب فى حقه، أو يقول فى مدحه أنه هو سلطان العارفين ما هو عيب فى وصفه. قال أنو شروان: إذا أراد الله بأمة خيرًا، جعل العلم فى ملوكها، والملك فى علمائها، وسميته، بنفائس المجالس السلطانية، فى حقائق الأسرار القرآنية.

وهو مشتمل على مقدمة وعشر روضات، فينبغى لفوائد المجالس السلطانية، وفرائد نفائس النكات القرآنية، أن تكتب بالتبر، لا بالحبر. لأنها مشتملة على أسرار الآيات، ومتضمنة الحكايات، ومندرج فيها الآثار النبوية، ومذكور فيها أسرار العربية.

المقدمة فى كلام السلاطين

ذوى الاقتدار فى فضل العلم

سئل إسكندر أى رجل يصلح أن يكون ملكا؟

قال: إما حكيم ملك الحكمة. أو ملك طالب الحكمة.

قال فغفور الصين: الجهل مصيبة لا يؤجر عليها صاحبها.

قال قيصر الروم: كل قبيح فى الدنيا الجهل به أقبح منه.

قال فور الهند: قرائن الأحوال تدل على حقيقة الحال.

قال كيخسرو: حسن الذكر ثمرة العمر.

قال بهرام كور: إنا نجمع الرجال، لا الأموال. وندخر الذكر، لا الوفر. ونذاكر العلوم، لا الرسوم.

(١) يعنى أنه مظهر من مظاهر الله فى خلقه.

قال بطليموس الملك: العقول مواهب، والعلوم مكاسب.

قال أردشير بابكان الملك: العلم عمود الدين، و الدين أس الملك، والملك حارس الدين. فما لا أساس له فمهدوم، وما لا حارس له فضاع.

قال منوجهر الملك: علم الرفق مصباح النجاح.

قال كسرى قباذ: ينبغى أن يكون الملك صاحب العلم والفراسة كالأسد حوله الفرائس، لا كالفريسة حوله الأسد.

قال خان ملك الترك: إضمار الغضب على من هو فوقك مهلك.

قال يزدجرد شهر يار الملك: أطع من هو فوقك يطعك من هو دونك.

قال محمود الغزنوى: العلم طبيب الدين والمال دواؤه.

ونختم هذا بقول خاتم السلاطين، أمير المؤمنين، وخلفة المسلمين، الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره:

ما فى الدنيا أحسن من الأدب، لأنه يزين الإغنياء، ويستر فقر الفقراء.

وقال أيضا: إذا اتفق جماعة على شىء وإن كان كذبًا فلا تخالفوهم.

وقال أيضا: لو كان الاجتماع بأبى حنيفة ممكنًا لسألت عن حكمة كراهية قراءة المأموم خلف الإمام.

ولو كان الاجتماع بالشافعى ممكنا لسألته عن حكمة جواز الوضوء من قلتين مع أنه يتغير بأدنى تغير. لو أنت تبعت فى هذه المسألة مذهب أبى حنيفة لكان أحسن.

الروضة الأولى فى مجالس رمضان

المجلس الأول

طلعت يوم الخميس ثالث عشرين رمضان المبارك فى تاريخ ستة عشر وتسعمائه. وكان فى خدمته ناصح الملوك والسلاطين، الشيخ حسين حلبى. وكان الإمام فى تلك الليلة الشيخ شمس الدين السمديسى؛ وقعدوا فى الأشرفية ستين درجة، ووقع فى تلك الليلة أسئلة:

السؤال الأول:

قال حضرة مولانا السلطان: الصلاة من الله تعالى رحمة، ومن المؤمنين الدعاء. فمعنى اللهم صل على محمد أى ارحم محمدا، فكيف يجوز لنا أن نسأل له الرحمة مع أنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين؟ لابد أن تكون مرتبة السائل أعظم من المسئول له؟

عجزوا عن الجواب. ثم قرآنا الفاتحة.

قال حضرة مولانا السلطان: إنا نسأل الدعاء فى الحقيقة لأجل أنفسنا، ولاشك أن النبى صلى الله عليه وسلم ما هو محتاج إلى صلاتنا عليه، والمقصود من صلاتنا عليه طلب زيادة قدر النبى صلى الله عليه وسلم، وطلب زيادة قدر النبى صلى الله عليه وسلم مستلزم لزيادة قدر أمته، كما ورد الأحاديث فى فضيلة الصلاة عليه.

قال الشيخ برهان الدين بن أبى شريف، والشيخ جلال الدين السيوطى: هذا الجواب فى غاية الحسن.

السؤال الثانى:

قلت: ما السر فى أن الدعاء فى جميع الشرائع لا يقبل إلا بالصلاة على نبينا، وفى الشرائع الأخر إجابة الدعاء ما هو مؤقوف على الصلاة على أنبيائهم، بل بمجرد الصلاة على نبينا يقبل دعاؤهم، كآدم عليه السلام ما استجيبت توبته إلا بعد الصلاة على محمد، وكذلك يوسف عليه السلام ما تخلص من السجن إلا بعد الصلاة على نبينا؟

قال حضرة مولانا السلطان: الواجب على الداعى أن يتوسل بأعظم شفيع، لاشك أن أعظم شفيع عند الله محمد عليه السلام.

السؤال الثالث:

قال مولانا السلطان: أى رجل صلى ركعتين بلا سهو فما لم يسجد سبع سجدات لا تصح صلاته؟

وقال: أمهلتك ثلاثة أيام. ثم بعد ثلاثة أيام بست الأرض وقلت:

رجل دخل مع الإمام فى الركعة الثانية، فقد أدركه فى السجدتين، فلما قعد الإمام قدر التشهد قبل أن يسلم أحدث وتأخر وقدم هذا المسبوق ليسلم، ثم أخبره الإمام أنه ترك سجدة فإنه يجب عليه أن يأتى بها ويشير إلى القوم ليسلموا، ثم يصلى ركعتين بأربع سجدات.

السؤال الرابع:

قال الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) لأى حكمة ما قال: وأطيعوا أولى الأمر منكم؟؟

قال مولانا السلطان: حتى يفهم منه أن أمر أولى الأمر ما هو مخالف

لأمر الله وأمـر الرسول. بل لابد أن يكون موافـقا للشرع الشـريف والكتاب والسنة.

لطيفة:

ذكر مولانا السلطان على الطارئ أنه قيل:

ركب خـواجة مـحمـود الكاوان فى الهند مع الوزراء فلمـا وصلوا إلى زريبة البقر وهى فى الصياح قالوا له: يا خواجة، ما يقول البقر؟

فقال: هى تقـول لى: اخرج من بين الحمير وتعـال عندنا المناسب لهذا المجلس.

حكاية:

قيل: قصد السلطان محمود الغزنوى رحمه الله زيارة واحد من الأولياء وسافر مسـيرة شهر فلما وصل إلى بلاد الشيخ بعث قـاصداً إلى الشيخ وقال قل له: إنا جئنا بطول مسـافة شهر لقصـد زيارتكم ووصلنا إلى باب مدينتكم فـالواجب عليكم أن تخـرجوا إلى باب المدينة حـتى يزوركم السلطان؟ قـال الشيخ ما لنا حاجة بزيارة السلطان. ثم بعث السلطان ثانيًا فقال: قولوا له أما قرأت قوله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)؟

قال الشيخ: إطاعة أولى الأمر واجبـة إذا كانت موافقة للكتاب والسنه. والله تعالى ما أمـرنا فى كتابه بزيارة السلطان فأعجبـه منه هذا الجواب فركب إلى زيارة الشيخ.

نختم هذا المجلس بظرافة:

قيل: إن أعرابيا كان يأكل فى شهر رمضـان الفاكهة بالنهار. قيل له: ما

هذا؟ فقال الأعرابى: رأيت فى كتاب الله (كلوا من ثمره إذا أثمر) وأنا خفت أن أموت قبل الإفطار فأكون عاصيًا.

المجلس الثانى

طلعت ليلة الأربعاء سابع عشرين رمضان المبارك، و الإمام كان الشيخ شمس الدين السمديسى، وقعدوا فى تلك الليلة ستين درجة فى الأشرفية فوق فى تلك الليلة اسئلة:

السؤال الأول:

قلت: أى شىء فعله حرام وتركه حرام؟

الجواب: قال مولانا السلطان: صلاة السكران

السؤال الثانى:

سأل مولانا السلطان: أى صائم إذا أفطر فصلاته صحيحة وإن تم صائمًا بطلت صلاته؟

الجواب: هذا رجل اغتسل فى ليل رمضان بدون المضمة والاستنشاق، فإذا شرب الماء وصل الماء إلى حلقة فخرج من الجنابة.

السؤال الثالث:

قال مولانا السلطان: أى جنب يطهر من الجنابة بوزن درهم من الماء؟

الجواب: قلت: إذا اغتسل جميع بدنه فلصق فى بدنه قطعة من الشمع، فما لم يغسل هذا الموضع إلى يخرج من الجنابة. ويكفى فى غسل هذا الموضع قدر الدرهم من الماء.

السؤال الرابع:

قال مولانا السلطان: رجل صلى صلاة الظهر - مثلا - بالوضوء - الكامل، وما أحدث شيئًا وما وصل اليه نجاسة جديدة فركعتان منها صحيحتان وركعتان منها فاسدتان.

الجواب: قلت: رجل أصاب ثوبه دهن نجس أقل من الدرهم ثم انبسط بعد الركعتين الأوليين.

السؤال الخامس:

سأل مولانا السلطان: إذا ابتلع الصائم أشرفيا من الذهب هل هذا مبطل لصومه أم لا؟

الجواب: قلت: عن الشافعى يبطل مطلقًا. وعند أبى حنيفة لا يبطل. وعند مالك فيه قولان.

السؤال السادس:

أى رجل إذا دخل فى مسجد فبدخوله يقع طلاق الإمام ويجب حلق ذقن المأموم ويجب هدم المسجد؟؟

الجواب: قلت: هذا الرجل كان مسافرًا، وجاءت هذه الجماعة الذين هم مأمومون وقت دخوله، وشهدوا بالزور بموته، وأخذ الإمام امراته وعمل بيته مسجدًا.

السؤال السابع:

قال مولانا السلطان: امرأة رأت رجلا فقال: هذا ابنى وأخى وزوجى وعبدى؟؟

عجز أهل المجلس عن جواب هذه المسألة.

ثم قال مولانا السلطان: أمهلتك ثلاثة أيام، رح فهات

الجواب: وقال مولانا السلطان: ما يعرف جواب هذه المسألة إلا القاضى شهاب الدين بن الفرفور.

قلت: أروح عنده وأسأل وأجيب الجواب.

ثم بعث مولانا السلطان قاصدا إلى ابن الفرفور، وقال: إن الشريف يأتى إليك لجواب المسألة. لا تذكر له الجواب.

فلما رحنا عند القاضى رحمه الله قال ما نقول جواب مسألة السلطان إلا بأمر مولانا السلطان.

ثم درت فى المدينة ثلاثة أيام وسألت جميع الفقهاء والفضلاء، ما قال لى أحد جوابها.

ثم بعد ثلاثة أيام طلب منى مولانا السلطان جواب المسألة، قمت وبست الأرض وقلت: مولانا السلطان أعلم بها من جميع العلماء ثم قرآن الفاتحه.

الجواب: قال مولانا السلطان إنه وقع نكاح الشبه بين الأب والبنت فولد منهما ولد، ثم تزوج هذا الولد أمه أيضا بالشبهة، ثم أسلمت الأم واشترت ابنه.

السؤال الثامن:

قال مولانا السلطان: لأى حكمة سموا الإمام الشافعى بالشافعى؟

قلت: هذا السؤال بعينه سأله السلطان شاه رخ فى العجم.

الجواب: قيل ماتت امرأة وهى حبلى، فأمر الإمام مالك بدفنها؛ فلما خرجوا من عند الإمام مالك لقوا الإمام الشافعى، وكان فى ذلك الزمان شابا يقرأ على الإمام مالك. قال الشافعى: ادفنوها ولكن اعملوا على لحدها قصبًا مجوفا وانتظروا ثلاثة أيام.

فلما علموا بقول الشافعى ولدت الميتة فى اليوم الثانى، فأخرجوا الولد من القبر. فلما كبر وقرأ القرآن دخل هذا الصبى يوما عند الإمام مالك، فأعجب الإمام قراءته فقال له: من أنت؟ فقال: أنا الذى أمرت بدفنى مع أمى. فقال الإمام: كيف جرى؟ فقالوا: دلنا محمد بن إدريس على هذا، فقال الإمام: هو الشافعى.

السؤال التاسع:

قال مولانا السلطان: هذا الجواب مردود، لأنه على هذا التقدير لابد ألا تدفن الميتة الحبلى الآن عند مالك. ومع هذا المسألة عندهم على خلاف هذا الجواب، بل الحق أن الشافعى اسم لجده، كما أن (الحنبل أيضا اسم لجده ومنسوب إليه).

السؤال العاشر:

قال الله تعالى فى كتابه العزيز: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها). إنا صلينا - مثلا - ركعتين فيجازينا فى القيامة بعشرين ركعة. ولا شك أنا محتاجون فى القيامة إلى الجنة والرحمة، لا إلى الصلاة.

قال مولانا السلطان: المراد عشرة أمثال التى كتبتها الملائكة فى الجزاء، أو نقول باعتبار رجاء العبد يعنى التى هم يرجون من الله فلهم عشر أمثالها.

السؤال الحادى عشر:

لأى حكمة قال: (عشر أمثالها) وما قال: عشرة مثلها؟

الجواب: حتى لا يتوهم أن الجزاء منحصر بعشرة فقط، بل يمكن أن يزيد إلى سبعمائة.

فائدة:

قال مولانا السلطان: ما فات منى إحياء ليلة القدر من حين أدركت وبلغت.

ورأوا فى بلاد جركس فى ليلة القدر لا يجرى الماء ولا يتحرك الهواء المناءب بهذا المجلس.

حكاية:

قيل: جاء سائل إلى باب رابعة العدوية، وكان عندها رغيفها، فأعطتهما السائل.

ثم بعد هذا جاء واحد فدق الباب وجلب عشرين رغيفًا، وسرقت جاريتها من الباب رغيفين وجابت قدام الست ثمانية عشر رغيفا؛ فلما رأت رابعة هذا قالت: رغيفين آخرين فى أين؟ قالت الجارية: أى رغيفين قالت رابعة: قال الله تعالى فى كتابه الكريم: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وأنا تصدقت برغيفين. فجزاء ذلك إنما يكون عشرين.

فلما سمعت الجارية هذه المقالة من رابعة باست رجلها وأخرجت الرغيفين اللذين سرقتهما فى الأول.

ونختم هذا المجلس بقول إسكندر:

قال: ينبغى للملك إطاعة الله تعالى، لأن سعادة الرعية فى طاعة الملوك، وسعادة الملوك فى طاعة الله.

من المجلس الثالث

طلعت ليلة الجمعة فى سلخ رمضان المبارك، والإمام كان الشيخ محب الدين المكى، وقعدوا فى البيسرية أربعين درجة، وجاء الشيخ ابن أم أبى الحسن مع كتابين، واحد منهما (سيرة الملك الظاهر بيبرس ودخوله إلى الفرنج)، والكتاب الثانى (أحاديث فى فضل المسلم)، ويريد أن يقرأ جميع ما فى الكتابين، مع أنه لا يمكن قراءتهما فى شهر كامل.

قلت: ما مناسبة قراءة هذيه الكتابين فى تلك الليلة؟ أما (سيرة الملك الظاهر) فلانه لو كان الملك الظاهر حيا يتمنى أن يسمع سيرة مجلس مولانا السلطان.

وأما مناسبة الكتاب الثانى فى ليلة العيد فبعيد، بل المناسب فى هذه الليلة الشريفة ذكر فضل رمضان وأدائه، وفضل العيد وصلاته.

ووقع فى ذلك المجلس مسائل:

السؤال الثانى:

شخص رأى هلال العيد، وما رآه غيره، هل هذا الشخص يفطر أو يصوم؟

قال مولانا السلطان: لا ينوى الصوم ولا يأكل الطعام أيضا موافقة للمسلمين.

السؤال الرابع:

قال سلطان شروان: معنى العيد فى اللغة هو السرور فسرور المسلمين لاجل رواح رمضان الذى كل يوم يغفر فيه ذنوبهم وتستر عيوبهم، وأبواب جهنم مقفولة، وأبواب الجنة مفتوحة. فالقياس أن لا يفرح المؤمن برواح مثل هذا اليوم؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: فرح المؤمنين لأجل أنهم أدوا هذه الفريضة أداء كاملا ووصلوا إلى درجة الصائمين الكاملين لا بواسطة رواح رمضان.

السؤال السابع:

بعض البلاد نهارها ستة أشهر وليلها ستة. فكيف يصوم المسلم فى ذلك البلد؟

قال مولانا السلطان: الواجب عليهم أن يقيسوا بالمنكاب بقياس ليل مكة ونهارها، ويصوموا ويصلوا الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قياسًا على مسألة يوم خروج الدجال.

جوهرة:

جاء خبر موت النشيلى فى تلك الساعة. وقرأ مولانا السلطان لأجل روحه ثلاث مرات سورة الفاتحة وقال: الله تعالى يرحمه. ما تكلم أبدًا عندى فى شر أحد غير أنه قال فلان يحبك، وفلان يبغضك.

الروضة الثامنة فى مجالس شوال

من المجلس الأول

السؤال الخامس:

رجل مكره على سب النبى فالأولى له أن يرتد باللسان أو يصبر على الضرب حتى يموت؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: الأولى الصبر. لأن الإقرار شرط الإيمان او شطره. فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.

وقال حضرة مولانا السلطان: لو وقعت أنا، والعياذ بالله، مجبورًا مكرهًا على سب النبى نختار الموت وما نسب النبى.

قيل: عليه قال الله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ظاهرة الآية على أن المختار السب؟

قلت: المراد من الآية الكريمة الرخصة فى الجملة لا أن السب واجب عليه. بل الأولى ترك السب والصبر على الضرب كما ذكروه النووى فى الروضة.

فى آخر المجلس السادس

وفى يوم الجمعة واحد وعشرين من شهر شوال انتقل قطب فلك الإرشاد وخلاصة العباد والزهاد، شيخ الإسلام حسين جلبى من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وفى ذلك اليوم الشريف حسين أيضا وصل إلى رحمه الله.

من المجلس السابع

جوهرة:

وفى آخر المجلس طلب مولانا السلطان الشيخ عبد الرزاق الإمام وقال: والعجب أن العلمـاء والصلحاء، ما عملوا الدعـاء لدفع الطعن والوباء. قال الإمام: الوباء رحمة من الله تعالى ويحصل بسببها لهذه درجة الشهادة.

قال مولانا السلطان: لاشك أن المطر أيضا رحمة من الله تعـالى، فإذا جاوز حد الاعتدال ففى الشرع رخصة الدعاء فى تلك الحالة.

من المجلس الثامن

السؤال الرابع:

الفصحاء يذكرون الكلام بلا مؤكد، وإذا أنكر المخاطب يؤكدون بأن ثم باللام فما حكمة التأكيدات الثلاث أولا فى قوله تعالى: (إنا إليكم لمرسلون)؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: قـاعدة علم البيان أن أداة التأكـيد على قدر إنكار المخاطب، فالله يعلم ما تكن صدورهم فذكره بحسب إنكارهم.

المجلس التاسع

طلعت يوم السبت سلخ شـوال. وما خرج حضـرة مولانا السلطان فى تلك الليلة بسبب ضعف ابنه، وأمر أن يختـتم له الحفاظ وفرق على كل واحد دينارا من الذهب.

وفى يوم الجمعة سادس شهر ذى القعدة، درة درج الخلافة، ودرى برج

اللطافة، ثمرة شجرة العدالة، وشجر ثمر الإيالة، الواصل إلى جوار رحمة الصمد (السلطان محمد) الذى تفاخرت الأرض بسبب تربته الشريفة على صوامع الفلك، وتبختر الثرى بواسطة مقبرته اللطيفة على حظائر الملك، لما سمع نداء (أجيبوا داعى الله) تلقى بسمع القبول والطاعة. وانتقل من دار غرور الدنيا إلى دار سرور العقبى فى الساعة - سقى الله ثراه، وجعل الجنة مثواه.

والفقير الحقير، المعترف بالذنب والتقصير طعنت فى ذلك اليوم، وكنت محرومًا من ملازمة العتبة الشريفة مدة أربعين يوما. ونظمت تاريخ وفاته الشريفة باللسان التركى.

سويلمك كم أوغلى أولدى حضرة سلطان مصر

بر مؤمن أولمدى فى كل أرض العامرة

مالك أولدى كل دنيا بالعدالة آتسى

كتدى أوغلى تاكه دوتسون ملك دار الآخره

عقل مندن صردى تاريخ وفاتن، سويلدم

يتشر تاريخه أعلى القصور "الفاخرة"[1]

(١) أظنه أراد أن يؤرخ بكلمة "الفاخرة" وحدها وحسابها ٩١٧ والوفاة سنة ٩١٦ فقد أخطأ فى واحد. وكأنه لم يحسب الألف فى أداة التعريف.

الروضة الثالثة

فى ذكر المجالس التى وقعت فى ذى الحجة

من المجلس الأول

طلعت ليلة الأحد عشرين ذى الحجة الحرام. وقعدوا فى الأشرفية خمسة وعشرين درجة. والإمام فى تلك الليلة كان الشيخ عبد الرازق. ووقع البحث فى الألغاز.

اللغز الثانى:

ألا فأخبرونى أى شىء رأيتمو

من الطير فى أرض الأعاجم والعرب

فيؤكل مطبوخًا لذيذًا وتارة

فيؤكل مشويًا إذا اشتدّ فى اللهب

وليس له أيد وليس له فم

وليس له رجل وليس له ذنب

وليس له مخ وليس له دم

وليس له عظم وليس له زغب

الجواب:

قال مولانا السلطان: هو البيض.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: جماعة من الشعراء اجتمعوا فى خدمة سيف الدولة وقصدوا إيذاء المتنبى وقالوا إنا نبيض فى هذا المجلس. وكان مع كل واحد بيضة مخفية. فلما جاءت نوبة المتنبى صاح صيحة الديك. فقال السلطان: ما هذا. قال: لابد لهذه الدجاجات من ديك.

خاتمة:

قال بهرام بن بهرام: أسد حَطوم خير من ملك غَشوم. ملك غشوم خير من فتنة تدوم.

من المجلس الثامن

طلعت يوم الخميس سابع عشر المحرم. وقعدوا ثلاثين درجة فى المقعد. فلما دخل سيدى على الأخميمى قال له مولانا السلطان: يا إمام الأعظم.

ولهذه العبارة معان:

الأول: أنت إمام أعظم سلاطين الدنيا أو أنت أعظم أئمة السلطان. الثانى: أو أنت الإمام الأعظم فى هذا العصر، يعنى أنت أبو حنيفة الوقت.

ووقع فى تلك الليلة مسائل:

السؤال الأول:

قال رسول الله ﷺ: سبحانك ما عرفناك حق معرفتك.

وقال على رضى الله عنه. لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا. ولا شك أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الولاية. فقول النبى ﷺ يدل على عدم المعرفة، وقول الولىّ على كمال معرفته، فما التوفيق بينهما؟

الجواب:

قال مـولانا السلطان: ليس بينهـما تناقض. لأن مـراد النبى صلى الله عليه وسلم كنه الذات. ولفظ حق معرفتك يدل على هذا. ومعرفته بالكنه لا تحصل للبشر، سواء كان فى الدنيا أو فى الآخرة.

وقول الولىّ يدل على أن المعرفة التى يمكن تحصيلها حصلناها فى الدنيا ولا يزيد فى الآخرة شىء. لأن الدنيا دار تحصيل الكمالات ومزرعة الآخرة.

درة:

قال مولانا الـسلطان: ادعت جماعة مـحبة السلطان محـمد القلاوون. فقـال لهم: إن كنتم تحبـوننى ارموا أرواحكم من القـصر. فقـالوا: بسم الله وجروا من أول سطوح الـقصر إلى نهـاية طرف القصر. فـوقفـوا وقالوا: يا مولانا السلطان. مـحبتنا لك إلى هذا الموضع. فـمن يزيد علينا قدمًا فالمحـبة له.

الروضة الخامسة

فى المجلس التى وقعت فى شهر صفر

من المجلس الخامس

طلعت يوم الخميس عشر شهر صفر وقعدوا سبعة وعشرين درجة فى المقعد ووقع فيه مسائل إلخ.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: فى أيام المعتصم وقع فى شبكة صياد مخلاة فيها كف مخضب بخواتم الذهب. فلما سمع المعتصم نظر فى الخاتم فرأى أنه ما هو من شغل بغداد. فطلب المخلاتيين فقال واحد منهم: اشترى هذه المخلاة منى مباشر فى هذه الأيام فسأل عن هذا المباشر. فقيل له: هو رجل يشرب الراح ويحب الملاح، وفى الليل والنهار فى الخمر والزمر. ففتش عن أحواله من جيرانه، فقالوا إن هذا المباشر هوى جارية وكانت من المغنيات وقصد بيعها ووقع الخلاف فى قيمتها. فصاحب الجارية خلاها عند المباشر فأنكرها، وحلف أنها خرجت من عنده إليه. ثم راحوا واشتكوا إلى الديوان. فأمر بتفتيش بيت المباشر. وهو من الخوف قتلها. ثم أمر الخليفة بإحضار سيد الجارية. فلما رأى ذلك قال: هذا كف جاريتى. فأحضر الخليفة المباشر وقال له: يا ولد الزنا يا فاسق، ما قنعت بهذه الأفعال الذميمة حتى قتلت نفسًا محرمة. فأمر بشنقه على باب داره والمخلاة فى عنقه.

من المجلس السادس

طلعت يوم السبت سابع عشر شهر صفر وقعدوا فى المقعد سبعة وعشرين درجة. ووقع فيه مسائل إلخ.

المناسب لهذا المجلس:

أنه كان شيخ نصاب فى العجم يدعى دعوة الجن. فبعث إلى السلطان تمور[1] وقال له: للجن عرس ويطلبون منك شيئًا من الذهب لأجل الزفّة. قال تمور فى الجواب: سلموا على الشيخ وقولوا له: ما باب فى الدنيا إلى وهو مفتوح عليهم، فلابد هم يدخلون فى ذخيرتى ويأخذون من الذهب مهما شاؤا.

من المجلس السابع

طلعت يوم الثلاثاء عشرين شهر صفر وقعدوا فى المقعد ثمانية وعشرين درجة. والإمام كان الشيخ عبد الرازق. وفتح مولانا السلطان فى تلك الليلة لغزين. ووقع فيها مسائل:

السؤال الثانى:

قال الشيخ عبد الرازق: هل معرفة الله بالقلب أو بالنقل؟

الجواب:

قلت: معرفة الله بالقلب ما تكلم به العلماء، وفساده ظاهر، لأنه إذا كان مناط المعرفة القلب يلزم أن يكون جميع الحيوانات العُجم والأطفال

---

(١) يعنى تيمور لنك.

والمجانين كلهم مكلفين لأنهم أصحاب قلوب وليس كذلك. بل قالوا: معرفة الله تعالى إما واجبة شرعًا أو عقلاً.

قلت: عند الحنفية واجب عقلاً بدليل قوله تعالى: (أو لم يتفكروا فى خلق السموات والأرض).

وعند الشافعية واجب شرعًا بدليل (وما كنا معذبين) إلى آخر الآية[1].

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: أسلم ابن وزير ملك الصين واشتكت الأمراء والمباشرون وقالوا للملك: قد آمن ابن وزيرك بسيد المرسلين ؟

قال الملك فى جوابهم: بدنه مأمور لأمرنا، ومحكوم تحت حكمنا، وقلبه ما هو تحت أمرنا. خلوة يرتبط بأى شخص يشتهى خاطره.

من المجلس الثامن

طلعت يوم الخميس ثانى وعشرين شهر صفر وقعدوا فى المقعد ثلاثة وثلاثين درجة. والإمام كان الشيخ محب الدين الحلبى. ووقع فيه الألغاز والمسائل:

اللغز الأول:

ومـيت بقبر طعمه عند رأسه

إذا ذاق من ذاك الطعام تكلما

يقوم ويمشى ناطقًا بفصاحة

ويأوى إلى القلب الذى كان قيمًا

(١) «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً».

قال: هو القلم.

اللغز الثانى:

خليـــلان ممنـوعـان مـن كل لذة

يبـيـتـان طول الدهر مـجـتـمـعـان

إذا أمسيا كـانا على الناس حارسا

وعند طلـوع الفـجـــر يفـتـــرقـان؟

قال: هو الباب.

من المجلس التاسع

طلعت يوم الثلاثاء سـابع وعشرين شهـر صفر وقعدوا فى المقـعد ثلاثًا وعشرين درجة. ووقع فيها مسائل ولغزان.

اللغز الأول:

وذى ســـفـــر لا يـحب المقـــام ولا يسـأم الـسـيـر فى كـل حـال

يبـــيـــد الـلـيـــالى فى مـــرة وتضنيـــه فى مـــرهن الليـــالى

قال: هو القمر.

من المجلس العاشر

طلعت يوم الخميس التاسع والعشرين من شهـر صفر وقعدوا فى المقعد عشرين درجة. وقع فيها مسائل إلخ.

الخاتمة:

سئل الإسكندر: ما أحسن حال الرعية ؟

قال: إذا كان ملكهم لطيف العقل صحيح الرأى عالمًا بالحكمة.

وسئل: ما أسوأ حال الرعية ؟

قال: إذا عدم من الملك هذه الخصال.

فى الدعاء:

الحمد لله والمنة؛ إن هذه الخصال موجودة كلها فى حضرة سلطان العرب والعجم، أشرف ملوك العالم، وارث ملك يوسف الصديق، خليفة الأرض بالحق والتحقيق، أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، الملك الأشرف أبو النصر، عزيز مصر، قانصوه الغورى. اللهم خلد ظلال معدلته ورأفته فى بسيط الأرضين، وأيد أنوار سلطنته وخلافته على كافة المسلمين إلى يوم الدين. آمين.

الروضة السادسة

فى مجالس ربيع الأول

المجلس الأول

طلعت يوم السبت ثانى ربيع الأول وقعدوا فى المقعد عشرين درجة. ووقع فيه لغز ومسائل:

اللغز الأول:

وآكلة بغير فم وبطن ... لها الأسجار والحيوان وقت

إذا أطعمتها نعشت وعاشت ... وإن أسقيتها ماء تموت

قال: هو النار.

السؤال الأول:

قال مولانا السلطان: لا يخفى على الله شئ فى الأرض ولا فى السماء. فلأى حكمة ما بين حقيقة الروح فى جواب: (يسألونك عن الروح)؟

الجواب:

قال الشيخ برهان الدين بن أبى شريف: اليهود قصدوا تعجيز النبى وتغليطه. فسألوا عن مشترك بين المعانى، وقصدوا أنه مهما يقل لهم النبى يقولوا فى الجواب: ما قصدنا هذا المعنى. وأما اشتراك الروح فإنه قد يطلق ويراد به جبرائيل وقد يطلق ويراد به عيسى أو الملك. وقد يطلق ويراد به قوة فى الحيوانات وهى مبدأ الحس والحركة. فقال الله تعالى فى جوابهم شيئًا يصلح لجميع هذه المعانى.

الجواب الثانى:

قال مولانا السلطان بعد قراءتنا الفاتحة: جواب آخر: وهو أن يقول الله: ما ينفعكم معرفة حقيقة الروح لأنه لا يتعلق به أحكام الشريعة. والأولى لكم معرفة مسائل يتوقف عليها التكليف.

من المجلس الثانى

طلعت يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الأول وهذه الليلة كانت ليلة كسر النيل. وفى تلك السنة أو فى البحر عشرين ذراعًا وعشرة أصابع. ووقع فى تلك الليلة ألغاز. والمماليك الصغار فى تلك الليلة قرءوا قدام مولانا السلطان.

قال ابن النحاس: كنت فى خدمة قاضى كاتب السر فقال لى: تعالى إلى تفرج كسر النيل. وأنا ما رضيت. لأن مولانا السلطان هو البحر الكبير. وبحر النيل بحر الكسر فى هذه الليلة، وهذا البحر له جبر الخواطر.

قال مولانا السلطان:

اللغز الأول:

أى شىء تلف محض بلا نفع: عجزوا عن الجواب فقرأنا الفاتحة.

الجواب: قال مولانا السلطان: تودير[1] المصريين فى هذه الليلة.

اللغز الثانى:

وطائرة أمست عديمة أربع

عظام ولحم والدماء وريش

(١) يقال فى اللغة العامية المصرية: ودره: أى أتلفه أو أهلكه.

فيؤكل منهـا البعض والبعض طائر

ويحـرق منها البـعض وهى تعـيش؟

قال: هو النحل.

اللغز الرابع:

مـــا اســم شيء قـــد غـــدا نزهة للنفس، مـــحـبـوب لدى الأرمـة

وإن ترد تصـــحـــيـف مـــقـلـوبة تجـده شـــهـــرًا من شـــهـــور السنة

قال: هو البحر[1].

المناسب لهذا المجلس:

قيل لإسكندر: إن فى عـسكر داراب الملك ثلاثمائة ألف رجل. فـقال إسكندر فى الجواب: بكثرة الغنم لا تخوفوا القصاب.

قيل لأنوشروان: إن فى عسكر سلطان الحبوش والسودان أربعمائة ألف رجل. فقال أنوشروان لهم: لا تخافوا لأن النار القليل تفنى الحطب الكثير،

المناسب لهذا المجلس:

أنه سئل أفلاطون: ما علة ملوحة البحر؟

فقال لهم: بينوا لى فائدة العلم بهذا حتى أبين لكم علته.

وتوقيعه من كلام سيد الأنام عليه السلام أنه قال: من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه.

---

(١) يعنى إذا قلبت كلمة بحر وصحفت فهى "رجب".

الخاتمة:

قال إسكندر: ينبغى للعاقل أن يكون مع سلطانه كراكب سفينة البحر إن سلم جسمه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف.

من المجلس الثالث

طلعت نهار الخميس سابع شهر ربيع الأول. وقعدوا فى المقعد ثلاثين درجة. ووقع فيه المسائل ولغز:

اللغز الأول:

ألا خذ وعد موسى مرتين وضع أصل الطبايع تحت ذين

وركب بيت شطرنج فخذها فركبها[1] خلال الموعدين

فذاك اسم لمن يهواه قلبى وقلب جميع من فى الخافقين

الجوانب مولانا السلطان: وعد موسى أربعين وهو بحساب الجمل ميم. وأصل الطبايع أربعة وهى دال. وبيت الشطرنج ثمانية وهى الحاء. والمجموع هو اسم محمد. وهو حبيب قلوب من الخافقين.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قال الشيخ الربانى علاء الدولة السمنانى قدس الله روحه، وكتب فى وصيته. إذا دخل الكافر أيضًا فى زاويتى فأطعموه. لأن كل من يستحق عند الله التشريف بجوهر الروح اللطيف. فهو يستحق عندنا أيضًا قرص الرغيف.

وتوقيع هذا: أكرموا الضيف ولو كان كافرًا.

---

(١) فى الأصل: فكسّبها.

الخاتمة:

قال المأمون لأمـرائه عنكم بأهل السخاوة والشجـاعة، فإنهم من أهل حسن الظن بالله تعالى. ومع الجود سوء الظن بالمعبود.

أنعام حضرة السلطان:

نزلنى فى المدرسة الغـورية وأعطانى وظيفة التصـوف فيها. اللهـم كما سلمت بيده زمان الدين، وجعلته من أفضل الملوك والسلاطين، شرف مسمع مجامع المسلمين، بصيت فتحة المبين، يا رب العالمين. آمين.

واقعة:

فى يوم الجمعـة ثامن شهور ربيع الأول دخل فى القاهرة مفـخر الأمراء والأكابر، صاحب المنـاقب والمآثر، الواثق بالملك الحى، أمير سيـباى، وشرف بتقبيل العتبة العلية، الغورية، شيد الله أركان قواعدها.

من المجلس الرابع

طلعت يوم السبت تاسع ربيع الاول وقعدوا فى الأشرفية عشر درجات. ووقع فيها المسائل والألغاز.

اللغز الأول:

مولاى شمس الدين يا رب الحجا

مـــا اسم ثلاثى لـه وجـــه يســـر

لم يبق لى فى العـشق لو ما قلبـه

صحف وذق إن لم يكن حلوا "فمر"

قال: هو القمر.

اللغز الثانى:

أتى بلـغــز ثلاثى يعـــجـــزّنى

وظن ذلـك بحـــــرا لســت أملـكه

وقال فسّـره شمس الدين قلت له

مولاى لغزك ليس الـشمس تدركه[1]

قال: هو القمر.

* * *

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: "لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر".

مولد السيد الأعظم ﷺ

الليل لما عسعس، والصبح حين تنفس، خرج سلطان ممالك الأفلاك من خيمته الأزرق[1]. وهربت منه جيوش حبوش الليل الغسق. ونزل عساكر أنواره على وجه الأرض، واستولى على جميع الممالك بالطول والعرض. أمر السلطان الأعظم، والخاقان المعظم، سليمان الزمان، إسكندر الدوران، وارث ملك يوسف الصديق، خليفة الحق[2] بالحق والتحقيق. أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله تعالى ملكه وسلطانه، وأفاض على العالمين بره وإحسانه - رب كما جعلت شموس معدلته رافعة لظلام الظلم عن كافة الأنام فى العالم، اجعل خيام بقائه مشيدة بأوتاد الأبد، وأطناب الدوام المؤبد. بجاه محمد. يا واحد يا أحد - أمر[3] بضرب خيمته الزرقاء، على فرش مسطح الغبراء، التى كان الفلك الأطلس يتمنى أن يكون من سقوف قبابها، وترتجى النجوم والكواكب أن تكون من مسامير أبوابها. مما كانت الكواكب فى تلك الليلة ظاهرة، بل كانت عيون الملائكة من الملأ الأعلى لأجل تفرجها ناظرة، وبواسطة هذه الخيمة السلطانية صارت السموات السبع ثمانية، وكأن أشارت سماء الدنيا بأنملة الأهلة إلى الملك، وقالت: هل رأيتك مثل هذا الفلك ؟ والشمس والقمر يدوران حولها ويرميان روحهما من المنافذ حتى يتفرجا المجلس العالى. وفلك القمر فتح أعين الكواكب الثواقب، حتى ينظر وجوه الأكابر والأهالى.

---

(١) يريد خيمته الزرقاء، وسلطان ممالك الأفلاك: الشمس.

(٢) الحق: الله تعالى.

(٣) يعنى السلطان الغورى.

ثم سلطان الحرمين الشريفين، فى يوم الأثنين، عمل مولد سيد الكونين، ورسول الثقلين، وسلطان قاب قوسين.

وكان هذا اليوم مصداق: (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود)، لأنه يوم معراجه ﷺ ووفاته، ويوم المولود[1].

وكان هذا اليوم موكب عظيم، فلا فيه لغو ولا تأثيم. وفى هذا اليوم اكتسبت السماء من الأرض استفاضة النور. وهذا الخبر عند أهل الأثر معروف ومشهور.

وكان مولانا السلطان فى الخيمة كالشمس فى وسط سماء الدولة، أو بدر كامل فى فلك أطلس السعادة، فى طرفيه اثنا عشر منزلاً، وفى كل منزل مقام مقدم ألف، وهو كقمر كامل بلا نقصان، أو بدر لامع بلا خسران. فأمر حضرة مولانا السلطان بإحضار السادات العظام، والعلماء الأعلام، وقضاة الإسلام، والأمراء الكرام، ووزراء الأنام. ووجوه الناس من المباشرين والحكام، والصلحاء والفقراء والمشايخ والزهاد، والعباد من جميع البلاد، والفقهاء والفضلان والمدرسين، وأجواق القراء والحفاظ والمؤذنين، من العرب والعجم، والترك والديلم.

ومد سمطًا عجيبة كبيرة، مع أطعمة غريبة كثيرة، بحيث لا يقدر لسان الإنسان على ذكر بيانه، أو كأن: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) نازل من شأنه، أو نزلت مائدة من السما، على جميع من فى الدنيا.

لما فرغوا من الطعام، وقرءوا كلام الملك العلام، وذكروا مولد سيد الأنام، عليه السلام، بالكمال والتمام، ألبس أعظم سلاطين الإسلام الخلع

(١) المولود: المولد. وهى بهذه الصيغة فى اللغة الفارسية والتركية والأوردية.

على الجميع، من الشريف والوضيع، وصار الحوش من مآثر الأولياء، وميامن بركات الأتقياء، ومن كثرة ازدحام الخلق، شبيهًا بموقف عرفات، بل بعرصة العرصات[1].

وأنعم عليه إنعامات بلا غاية، وإحسانات بلا نهاية.

(درر الكواكب، لو ما كانوا متوهمين أن يبخششهم مثل الليالى، على الأهالى الأعالى، لكانوا منتظمين فى خزينته العامرة. والشمس والقمر، لولا كان خوف أن يفرقهم بدل النقدين، بوجه إنعامات القراء، لكانا منسلكين فى ذخيرة القاهرة، الدرر والدرى، خافا من جوده فتحصنا بالبحر والأفلاك)[2].

وأنا كنت قاعدًا فى الدهشة، فى دهشة عجيبة من مشاهدات الرايات السلطانية، ومطالعات غرائب الألطاف السبحانية. لأنى رأيت مجلسًا لا عين رأت، وسمعت مولدًا. لا أذن سمعت. فخطر ببالى ما لم يخطر ببال أحد، وهو أنه يمكن بحسب تخيلات الشعر، وموجب تصرفات الفكر، تشبيه هذا اليوم بيوم الجزا، وتشبيه هذه النعمة بنعمة تُجزى، وتشبيه الخيمة الزرقاء بسماء يوم الدين، وتشبيه قرب شمسه بقرب سلطان السلاطين. ولله المثل الأعلى فى السماوات والأرض، سبحانه منزه عن الشّبه والنظير، (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير). ثم بعد الفراغ من المولد، وكان قريب وقت المغرب، جاء أسود الليل الغاسق، بزى السراق العائق. فسرق زرّ الذهب، من جيب الفلك الأطلس المذهب. فانهزم عسكر الروم من جيش الحبش[3]،

---

(١) أظنه يعنى المحشر.

(٢) أبقيت الأسطر التى بين القوسين بغير إصلاح ليرى القارئ مثلاً من إنشاء المؤلف حين يتكلف.

(٣) كناية عن إقبال الليل.

وصار عين الفلك من هذا الهم أعمش، فنوروا القناديل والشموع، من أول الليل إلى وقت الطلوع.

وفى تلك الليلة، كان وجه الأرض أنور من السما. من كثرة الشموع والثريا. لأن شمس فلك السعادة من برج الإقبال كانت فيها طالعة، وكواكب عساكره المنصورة من مدارج الجاه والجلال لامعة.

ثم قام مقدمو الألف، وجاءوا كالملك صفا على صف، بالطول والعرض، كلهم باسوا الأرض. فقدم عليهم أكبر أولاد قريش، ووارث المملكة والجيش، ابن عم النبى العربى، الهاشمى المطلبى، أمير المؤمنين يعقوب المتمسك بالله، خليفة مصر. باس الأرض، كفرض العين وعين الفرض، وقال الخيفة:

إن الخلافة ثوب قد خصصت به[1]

إذ لبست فلم يفضُل ولم يعزِ

ما أودع الله فى أحداقنا بصرًا

إلا لنفرق بين الدرّ والخرز

فميزه مولانا السلطان بجبر الخاطر، وفضله على جميع الأفاضل والأكابر.

ثم جاء من أصحاب اليمين، ذو التمكين، أتابك العساكر المنصورة، فى أعظم بلاد المعمورة، صاحب الرأى والتدبير، الأمير الكبير، وباس الأرض، كأداء الفرض، وفتح اللسان[2] بمدح مولانا السلطان. وقال الأمير الكبير:

(١) أظنه بفتح التاء خطابًا للسلطان.

(٢) هذه ترجمة العبارة الفارسية: زبان كشاد. وفى الكتاب كثير منها.

إن الفضائل فى الدنيا مشتتة

وما جُمعن مرور الدهر فى فِقَر

لكنهن بحمد الله قد جمعت[1]

أشتاتها عندكم فى أحسن الصور

قال حضرة مولانا السلطان: الحمد لله الذى جعل شكره سببًا للمزيد، وأجرى من ينابيع القلوب إلى مجارى الألسنة زُلال الشكر والتحميد.

ثم جبر خاطره بتحسينات وافرة؛ وتعريفات متكاثرة، بحيث تنفس أمير قرقماش شمائم روائح جبر الخاطر، ونسيم امتيازه على البادى والحاضر.

ثم جاء خلاصة الأمراء والأخيار، وحاكم البلدان والأمصار، الواثق برحمه الملك الحىّ، الأمير سيباى، باس الأرض وقال هذا النظم:

الحمد لله على كل حال قد ذهب الهجر وجاء الوصال

وصلت من لم ينله المنى وكنت أرضى بطواف الخيال

ثم حضرة مولانا السلطان جبر خاطره، فزين باطنه وظاهره. ثم جاء الأمير عالى القدر، أمين الملوك والسلاطين، مقبول الخلائق أجمعين، حافظ الأسلحة والأرماح، محب أهل الصلاح أمير السلاح، باس الأرض وقال هذا الشعر:

يا من أعاد رميم الملك منشورًا وضم بالعدل شملاً كان منشورًا

لا زال قاليك بالمنشار منشورًا وصدر وإليك للزوّار منشورًا

(١) فى الأصل: لكنها بحمد الله قد اجتمعت. وأظنها من تحريف المؤلف.

فامتازه مولانا السلطان، جبر الخاطر بين الأعيان.

ثم جاء الأمير رفيع المقدار، مغيث المظلوم عند الأضطرار، مهندس قواعد المملكة والمؤسس، وأمير المجلس. باس الأرض وفتح اللسان، بثناء مولانا السلطان وقال:

جنابك فردوس جرى من خلاله

كياس أياديك العزيزة كوثر

سأشكرها ما دمت حيا وإن أمت

فإن رميم العظم فى اللحد يشكر

فجبر خاطره. وزين ظاهره

ثم جاء الأمير الأعظم الأكرم عماد الدولة، وناظر أمور المملكة، الواثق بالملك القدير، أمير آخور الكبير. باس الأرض وقال هذا النظم:

توجه وفد الفتح والنصر حيثما

توجه فى عين الإله لواؤه

وكل مكان مسّ حافر خيله

تخلص من داء الفناء فِناؤه

فجبر مولانا السلطان خاطره.

وبسبب هذا انشرح صدره، وازداد قدره.

ثم جاء الأمير الأشجع، الأرفع، حامى شرع أحمد المختار، المؤيَّد بتأييد الملك الغفار، أمير دوادار. باس الأرض وقال هذا الشعر:

ولو أن البحـــار لنا مـــداد

ودجلة والفـــــرات وكـل وادى

ونَبت الأرض أقـلامًـا جـميعًـا

نـخط بـهـــــا إلـى يوم الـتنـادى

إذن لم أستطع إحـــصـاء مـا بى

من الـشكر المدخـــر فى فـــؤادى

فأمـتازه حضـرة مولانا السلطان، من بين الأقـران، بتحسـينات لائقة، وتمديحات شائقة.

بعده:

ثم جـاء الأميـر الأعظم، الأكـرم، حـافظ أبواب الملوك والسـلاطين، مقرب أمير المؤمنين، صاحب العـز والرفعة، نائب القلعة، باس الأرض وقال **أمير طقطباى:**

بقيت مـدى الأفلاك ملكُك راسخ

وظلـلك ممدود وبـابك عـــامـــر

يرد سنـاك البـــدرَ والبـــدرُ زاهر

ويقـفو نداك البـحـرُ والبـحر زاخـر

فجبر خاطره حضرة مولانا السلطان، فامتازه من بين الأقران.

بعده:

ثم جاء الأمير الواقف، العارف، خلاصة الأمراء والأعيان، مقرَّب حضرة السلطان، زين الحجَّاج، أمير الحاج. باس الأرض وقال الشعر:

أيا كعبة الآمال وجهك حجتى

وعمرة نسكى إننى فيك والع

بمزدلفات فى طريق غرامكم

عوائق من دون اللقاء قواطع

فامتازه بتحسينات لطيفة، وتمديحات شريفة.

بعده:

ثم جاء تاج رأس أرباب العمائم، ورأس تاج أركان الأعاظم. سلالة الأكابر فى العالم، صاحب السيف والقلم، مفتاح أبواب البر، ومصباح مشكاة الخير. كاتم سر حضرة الإله، وكاتب سر ظل الله، صاحب الرياستين، ناظر الديوانين، المختص بعناية الملك الودود، القاضى محب الملة والتشريعة والحقيقة، والتقوى والفتوى والدين، محمود. صانه الله تعالى من شر كل حسود، وضرّ كل حقود. وكان جميع أكابر الأعاظم، وجمهور أرباب العمائم، فى حوالى المخدوم العالى القدر، كالهالة حول البدر فى ليلة القدر، ووقف فى موقف العرض، وباس الأرض، وفتح اللسان، بمحامد مولانا السلطان، وقال القاضى:

سجاياك من طيب أعراقها

تُبارى النجوم بإشراقها

وما للعفاة غياث سواك

كأنك ضامن أرزاقها

قال حضرة مولانا السلطان: الحمد لله الذى فضلنا على عباده، وخصصنا بتشبث أهل ودادة. فجاء له جبر الخاطر من سلطان السلاطين، ما لم يؤتَ أحدٌ من العالمين.

بعده:

ثم جاء قضاة الإسلام، والعلماء العظام، الذين هم خلاصة أمة محمد، وأساس بناء دين أحمد. فحركوا ألسنتهم بالثناء. وفتحوا الأيدى بالدعاء. ثم فتح اللسان، بثناء مولانا السلطان، قاضى القضاة الشافعى الذى هو كان صاحب الرفعة، وخطيب القلعة. وقال شعرًا:

ففى كل عضو فىّ كل صبابة

إليكم وشكر جاذب لزمامى

أصلى فأشدو حين أتلو بشكركم

وأطرب فى المحراب وهو أمامى

فباسوا الأرض. ثم حضرة مولانا السلطان كان كالصبح الصادق على وجوه الوجوه متبسمًا. وهم برياح أنفاسه الشريفة متنسمًا.

بعده:

ثم جاء المخدوم المعظم، زين الوزراء فى العالم، أسعَد أولاد عثمان ذى النورين، وناظر جيش سلطان الحرمين الشريفين، آصف العهد والزمان،

أشرف ذرية عـثمـان بن عفـان، المختص بعناية الملك القـاهر، القاضى عـبد القادر؛ باس الأرض. وأمر[1] بخطيب اللسان، بثناء مولانا السلطان. وقال: نظم

وإنك للمـولى الذى بك أقـتـدى

وإنك لـلنجـم الذى بك أهـتـــدى

وأنت الذى بـلغـتـنى كل رتبـــة

مـشيتُ إليـهـا فـوق أعناق حُـــدى

فامتازه بجبر الخاطر بين الأعيان، حضرة مولانا السلطان.

بعده:

ثم جاء أعظم الوزراء والمبـاشرين، مـفخر الأمناء والمعـتمدين، مـقرب سلطان السلاطين، صاحب العز والاخـتصاص، القاضى ناظر الخاص. وباس الأرض بالصدق والإخلاق. وقال: نظم

اشكـر مـــآثره ولـسن مـــــآثرًا

لـكـنهـن قـــــــلائد الأعـنـاق

والثـم أنامـله ولـسن أنـامـــــلا

لـكـنـهن مـــــــفـــــاتح الأرزاق

فامتازه حضرة السلطان القاضى ناظر الخاص، من بين الخواص.

---

(١) أمر بمعنى قـال. وهى ترجمـة فرمود بالفـارسية أو يوردى بالتـركيـة، والأمر فى هاتين اللغتين يوضع موضع الفعل للتعظيم.

بعده:

ثم جاءت العساكر المنصورة حزبًا بعد حزب، وفوجا بعد فوج، كلجيّ البحر فى الموج، بعدّ أقطار الأمطار، وأوراق الأشجار، من أمراء الألوف الأربعينيات، والخاصكيات والعشروات، الذين عجز بنان البيان عن إظهار شمائلهم، ولا يقدر لسان الإنسان على بيان فضائلهم. جاؤا بأدعية وافرة، وأثنية، متكاثرة، فجبر خاطرهم، بقدر مراتبهم.

وأيضًا: ثم بعد العشاء أمر حضرة مولانا السلطان أولاد الرقاع، بالسماع. فلبسوا خرقة واسعة الأكمام والذيل، ورقصوا إلى نصف الليل. لما وصل غُلغُلة[1] الرقص بمسامع الملك، فرقص معهم سكان صوامع الفلك. ولبس شيخ الفلك[2] بزيهم خرقة المرقع الأزرق، وتشدد بشد الأحمر من الشفق، ورقص معهم، ودار حولهم، حتى طلع النهار، بأمر فاطر الليل والنهار.

لما فرغوا من السماع، قرب طلوع الشمس والارتفاع، اجتمعت المشايخ والعلماء والفقهاء، والزهاد والعباد والفقراء، وقالوا: اللهم أيد دولة هذا السلطان الأعظم، وشيد أركان معدلة الخاقان المعظم، واجعل راياته مرفوعة فوق خيمة الفلك الزرقاء، وأحكامه نافذة إلى أصقاع بقاع الغبراء، بحق محمد عين أعيان الإنسان، وآله وصحبه أصحاب الشهود والعيان.

---

(١) غلغل وغلغلة تستعملان فى الفارسية بمعنى الضوضاء.

(٢) أظنها ترجمة «بير فلك» الفارسية وهى كناية عن رُحَل.

من المجلس الخامس

طلعت نهار الثلاثاء ثانى عشر شهر ربيع الأول وقعدوا فى صفة الدهشة خمسًا وعشرين درجة. ووقع فيه المسائل والألغاز.

اللغز الأول:

مـــا اسم شيء حـــسن شكـله

تلـقـــاه عـند الناس مـــخـــزونًا

تراه مـــعـــــدودًا فـــإن زدته

واوًا ونونًـا صـــــار (مـــــوزونًا)

قال: هو الموز.

اللغز الثانى:

مـــا اسـم شيء طـاب أكـــلا

نـــاعـــم فـــى الحـــلـــق لـــيـــن

كـــــيف يـخـــفـى عنـك هذا

وهو فى الـتـــصـــحـــيف "بـين"

قال: هو التين[1].

---

(١) يعنى أن «تين» تصحف إلى «بين».

من المجلس السادس

طلعت يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الأول. وقعدوا فى الأشرفية ثلاثين درجة. وخسف القمر. ووقع فيه مسائل:

السؤال الأول:

قال مولانا السلطان: ما الحكمة فى الكسوف والخسوف ؟

الجواب:

قلت: هما آيتان من آيات الله. كما ورد فى السنة.

الجواب الثانى:

قيل: سبب الخسوف حيلولة الأرض بينه وبين الشمس، والقمر مظلم، فبقى القمر بلونه الأصلى أسود.

قلت: هذا مخالف لقوله تعالى: (وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورًا).

السؤال الثانى:

قلت: ما الفرق بين الضوء والنور ؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: الضوء هو النور الغالب القاهر المحرق بخلاف النور، فإنه يطلق على غير المحسوس أيضًا كنور القلب ونور الإيمان، دون الضياء.

السؤال الرابع:

قال مولانا السلطان: لأى حكمة وقت الخسوف يضربون الطاسات ؟

الجواب:

قلت: لأن المنجمين حكموا بخسوف القمر فى ليلة معينة عند هُلاكو خان. وكان الخان منتظرًا لتفرجه. ولما انخسف القمر كان هلاكو نائمًا. فعمل المنجمون حيلة لأجل استنباهه ودقوا الكاسات وقالوا: دَق الكاسات عند الخسوف واجب. ثم بعد ذلك صار هذا بدعة فى الدنيا.

من المجلس التاسع

طلعت يوم السبت سلخ ربيع الأول. وقعدوا فى الأشرفية ثلاثين درجة. وكان الإمام الشيخ عبد الرازق. ووقع فيه المسائل والألغاز:

اللغز الأول:

أتعرف طائرًا فى الأرض يُلفى

وفى جو السماء مع الجوارى

به عجب لأن الرأس حُوت

وآخره ترى ذنب الحمار ؟

قال: هو النسر.

اللغز الثانى:

لى جمع أصحاب أعشقهم وأهواهم

ولا أشتهى قط أنظرهم ولا راهم

أقسم بما خلقهم ثم سواهم

ما طاب لى العيش فى الدنيا برؤياهم

قال: هو الأسنان.

اللغز الثالث:

وذات ذؤابة تنجر طولا

تراها فى المجئ وفى الذهاب

وما لبست مدى الايام ثوبًا

وتكسو الناس أنواع الثياب؟

قال: هو الإبرة.

درة:

قرأ مولانا السلطان لروح صاحب العقائق سورة الفاتحة ثلاث مرات.

خاتمة:

قال إسكندر: افضل الملوك من بقى بالعدل ذكره.

واستملى من بعد فضائله.

والحمد لله والمنة أن هاتين الصفتين موجودتان فى السلطان الأعظم، مالك رقاب الأمم، حاكم بسيط الأرض، بالطول والعرض، أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، عزيز مصر، الملك الأشرف أبو النصر، قانصوه الغورى. اللهم اجعل شجرة رجائه مثمرة المراد، وأظهر صورة عدله فى مرايا قلوب العباد.

الروضة الرابعة

فى مجالس ربيع الآخر

من المجلس الأول

طلعت يوم الثلاثاء ثالث ربيع الآخر وقعدوا فى الأشرفية خمسًا وثلاثين درجة، والإمام كان الشيخ محب الدين المكى. ووقع فيه المسائل.

السؤال الرابع:

قال السلطان[1] بيقرا نصرة الله: لا شك أن الملائكة معصومون، وكمالاتهم بالفعل، ولا يزيد فى أعمالهم شئ من الكمال، فما فائدة بعثة الرسل فيهم؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: معنى رسل الملائكة أنهم جاءوا بالرسالة إلى أنبيائنا لا بمعنى أن جبرئيل صاحب أمة ويكمل النواقص، فالرسالة لفظ مشترك بين الملك والإنس.

جوهرة:

وقع البحث فى شب جراغ[2].

قال مولانا السلطان: ما هو موجود فى خزينتنا.

---

(١) الظاهر أنه يريد السلطان حسين بيقرا سلطان هراة من أحفاد تيمور لنك وقد توفى سنة ٩١٢ قبل تاريخ هذه المجالس. فهذا سؤال قديم حكاه المؤلف فى مجلس الغورى.

(٢) شب جراغ: "مصباح الليل" جوهر لماع له بصيص فى الظلام.

قلت: فعلى هذا شب جراغ ليس بموجود فى الدنيا. لأن الجواهر النفسية العجيبة ينسبونها على خزانة مصر. وحب ملوك مصر الجواهر النفيسة مشهور.

من المجلس الثانى

طلعت يوم الخميس خامس ربيع الآخر وقعدوا فى الأشرفية ثمانيًا وعشرين درجة. وكان الإمام الشيخ عبد الرازق. ووقع فيه المسائل إلخ.

درة:

قال حضرة مولانا السلطان فى آخر المجلس: إنه جاء فى زمن السلطان السعيد الشهيد المرحوم قايتباى رحمة الله ستة عشر مراكب من الروم وظهرت على شاطئ البحر فى طرابلس قريب العصر، وجاء من جانب مصر الأمير الكبير مع عسكر كثير لأجل المقابلة والمقاتلة. قلت لبعض أصحابى تعالوا حتى نقرأ الفاتحة لدفعهم، فقرأنا الفاتحة بعد العصر فغرق الجميع بأمر المقدر فى تلك الليلة. فلما طلع الصبح بعثنا المراكب الصغار مع الرجال لأجل ضرب رقاب الذى تخلصوا بالأخشاب. وفتحنا بسورة الفاتحة هذا الفتح المبين، وصرنا من المقاتلة آمنين. والحمد لله رب العالمين.

من المجلس الخامس

طلعت يوم الخميس ثانى عشر ربيع الآخر وقعدوا فى الأشرفية ثلاثين درجة. وكان الإمام الشيخ محب الدين المكى ووقع فيه المسائل.

السؤال الأول:

سأل مولانا السلطان عن الشطرنج من قاضى قضاة الحنفية؟

الجواب:

قال القاضى: عند الشافعية مباح بثلاثة شروط: الأول ألا يكون بالرهن. والثانى - ألا تفوت الصلاة بسببه. والثالث - ألا يزيد على ثلاث لعبات.

حكاية:

قال مولانا السلطان فى آخر هذا المجلس:

إن أمير تمور كوركان كان مشتاقًا لصحبة السلطان أحمد البغدادى؛ فدخل السلطان أحمد بزى القلندرى[1] على تمور، ولعب معه الشطرنج فأخرج من عبه ثلاث قطع من الياقوت البهرمانى وقال: إن وصلنا إلى سرنديب، وأعطانا سلطان سرنديب أرضًا بطول ذراعين وقال: هذا ميراث أبيكم آدم؛ أحفروا ومهما يطلع منه خذوه. وهذه اليواقيت منه. وقدم واحدًا منها إلى تمور. فأمر تمور بإحضار ثلاث قطع مثلها. فلعبا بالشرط، فغلب السلطان أحمد على تيمور مرتين، فأخذ منه ياقوتين بحكم الشرط، وخلى مكتوبًا تحت بساط أمير تيمور أن السلطان أحمد وصل إلى خدمتك وخرج. لما رأى تيمور هذا الورق وقع فى ندامة عظيمة.

درة:

فى آخر المجلس قال مولانا السلطان: فضائل خواجة عبد القادر صاحب فن الموسيقى.

منها: أنه أسر فى عسكر أمير تمور عند الجمّالين. فعمل جلاجل الجمل

---

(١) قلندر: الدرويش الجوّال الذى لا يبالى بشىء.

بحيث تخرج صوتًا ملائمًا. فلما عبر تمور إليهم بالليل سمع صدى هذه الجلاجل فأخرج عبد القادر من بينهم فرباه تربية عظيمة فوق الحد والوصف.

من المجلس السادس

طلعت يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر وقعدوا فى الأشرفية ثلاثين درجة والإمام كان الشيخ شمس الدين السمديسى ووقع فيه المسائل إلخ.

درة:

قال مولانا السلطان: ما فى الدنيا أحسن من الأدب. الأدب جوهرة والعقل معدنها. ولهذا، السلطان محمود فى وقت لعب الشطرنج مع إياس الخاص[1] كان يقول له: يا سيدى ألعب، ويا أمير ألعب، قال إياس: يا مولانا السلطان ما أنا مستحق لهذا التعظيم، فقال له السلطان، قصدى مداومة لسانى على الكلام المليح، والاجتناب عن[2] الكلام القبيح.

من المجلس السابع

طلعت يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الآخر. وقعدوا أربعين درجة فى الأشرفية. وكان الإمام الشيخ محب الدين المكى ووقع فيه المسائل:

السؤال الثانى:

إذا دخل أربعون نفسًا على مولانا السلطان، والذى دخل أولاً أخذ

---

(١) فى الأصل خاص إياس يعنى إس الخاص. وإياس هذا كان من خواص السلطان محمود. وصار أدبه وحب السلطان إياه مضرب المثل فى الأدب الفارسى.

(٢) الاجتناب عن الخ محاكاة للعبارة الفارسية.

ديناراً، والذى دخل ثانيًا أخـذ دينارين، والذى دخل ثالثًا أخـذ ثلاثة دنانير، إلى الأربعين، فالمجموع كم يكون عدده ؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: المجموع سبعمائة وثمانون.

من المجلس العاشر

طلعت يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر ربيع الآخر وقعدوا فى الأشرفية ثلاثين درجة. والإمام كـان سيدى على الأخميمى، وطلع الشيخ عباس مع مملوكين؛ واحد منهما حفظ عبادات مذهب أبى حنيفة[1] رحمة الله، والآخر حفظ القرآن. ووقع فى تلك الليل مسائل والغاز:

السؤال الثانى:

سأل مولانا السلطان من الشيخ عباس[2] لأجل مناسبة بحث العبادات: ما تقول فى صلاة العريان: السجود والركوع واجب عليه أو يكفيه الإيماء؟

الجواب:

قال الشيخ عباس: الواجب عليه أن يركع ويسجد دون الإيماء.

الرد:

قال له مولانا السـلطان: أخطأت لأن علماء الحنفية صـرحوا بالإيماء. لأن ستر العورة شرط، وانتفاء الشرط مستلزم لانتفاء المشروط.

---

(١) يرى فى هذه القصة وأشباهها عناية السلطان الغورى بتعليم المماليك.

(٢) "سأل عن الشيخ عباس" فى تعديه سأل بمن، محاكاة للعبارة الفارسية.

السؤال الثالث:

قال مولانا السلطان له: أى صـورة تصح الصلاة بثوب نجس وبدونه لا تصح؟

الجواب:

قال الشيخ عباس: المصلى إذا كان عريانًا وما معه إلا ثوب فيه نجاسة.

قـال مولانا السلطان: هذا يؤيد كـلامنا. لأن المصلى لا تصح صـلاته عريانًا وإن كان الثوب نجسًا.

السؤال الرابع:

قال مولانا السلطان: إذا كان بينهم قميص واحد من أولى بلبسه؟

الجواب:

يلبس الإمام ويتقدم على الكل والباقى فى صف واحد.

السؤال:

إذا كان بينهم قميص واحد فصلاتهم بالفرد أو بالجماعة.

الجواب:

الأولى ترك الجماعة إذا كانوا قادرين على أداء الصلاة فيلبس هذا الثوب كل واحد منهم ويصلى به.

من المجلس الحادى عشر

طلعت يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الآخر وقعدوا فى الأشرفية ثمانيًا وثلاثين درجة. والإمام كان الشيخ شمس الدين السمديسى. وجاء ابن عفريت مع المماليك الصغار وعرضهم على المقام الشريف ثم أنشد موشح قاضى القضاة الحنفى فى العزال الذى كان مطلعه.

يا بلائى بأعين الحبشى

وقال مولانا السلطان الموشح فى جوابه:

ما بلائى من أعين الحبشى

بل من الجبركنسى

وذكر ابن عفريت: أن عند قاضى القضاة جارية حبشية فأنشد القاضى هذه القصيدة لأجلها. ووقع فيه المسائل إلخ.

الخاتمة:

قال النبى ﷺ: السلطان ظل الله فى الأرض، فمن نصحه اهتدى، ومن غشه ضل.

من المجلس الثانى عشر

طلعت يوم السبت ثامن عشرين ربيع الآخر. وقعدوا فى وسط الدهشة الأشرفية أربعين درجة، وكان فى خدمته الشريفة الشيخان الكاملان الفاضلان العالمان العاملان شمس الضحى، بدر الدُجى، اللذان يرتجى البحر أن يكون قطرة على خضرة حديقة جودهما، ويفتخر الفلك فى هذا الزمان بوجودهما يعنى حضرة محمود الخصال، مسعود الإقبال، مفتح أبواب الخير والبر،

القاضى كاتب السر، لا زال عاقبته كاسمة محمودًا، وظله إلى الأبد ممدودًا. والثانى أسعد أولاد عثمان ذى النورين، وناظر جيش السلطان الحرمين الشريفين، ملجأ أعاظم الأكابر، القاضى عبد القادر، لا زال أقدام أقلامه على هامة الأنام، إلى آخر الشهور والأيام. وكان الإمام فيها الشيخ محب الدين الحلبى، وصنّف باسمه الشريف كتابًا فى وصف مدرسته ومأذنته الشريفة. وهو من هذه الحيثية كتاب شريف، لأن فيه أوصاف المقام الشريف. ثم قرؤا وأنشدوا موشح مولانا السلطان فى نغمة العشاق، وموضح قاضى القضاة الحنفى فى العزال.

درة:

قال حضرة مولانا السلطان: إنا مدحنا الترك، وقد مدحهم جميع شعراء العرب والعجم والترك والديلم، وما مدح أحمد من الشعراء قديمًا وحديثًا لحبوش لأنهم ليسوا فى درجة المدح[1].

نكتة:

قلت: إن الله تعالى مدح الحور بالبياض فى وقله تعالى (كأنهن اللؤلؤ والمرجان).

ووقع فى تلك الليلة ثلاث ألغاز إلخ:

المناسب لهذا المجلس:

قول إسكندر: إنه لا يعرب أربع إلا عند أربع:

---

(١) إشارة إلى موشح قاضى القضاة فى وصف الحبش وموضح السلطان اللذين تقدم ذكرهما.

لا يعرف الحلم إلى عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الصديق إلا عند الحاجة، ولا العالم إلا عند البحث والتصنيف.

الخاتمة:

قال أنوشروان:

حسن النية من العبادة، وحسن الجلسة من الرياسة، وحسن الاستماع من الحلم، وحسن البحث والجواب من العلم.

الحمد لله والمنة، هذه الصفات موجودة فى السلطان الأعظم، مالك رقاب الأمم، حافظ بلاد الله، ناصر عباد الله، أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، عزيز مصر، الملك الأشرف أبو النصر، قانصوه الغورى.

اللهم خلد دولته إلى يوم القيام، وأظهر معدلته على الخواص والعوام، بالنبى عليه الصلاة والسلام، آمين.

الروضة الثامنة

فى مجالس جمادى الأولى

من المجلس الأول

طلعت يوم الثلاثاء ثانى شهر جمادى الأولى وقعدوا ثلاثين درجة فى الأشرفية، والإمام كان الشيخ شمس الدين السمديسى وعرض ابن خواص المؤذن كتابين، الأول منهما المختار فى مذهب أبى حنيفة، وابن مالك فى النحو.

قال حضرة مولانا السلطان: يا خواص أخذت مذهبين: أبنك حنفى وأنت شافعى؛ يا خواص أنت طماع.

ووقع فى تلك الليلة مسائل إلخ:

لطيفة:

قال مولانا السلطان: إن ابن عثمان أمر[1] لناصر الدين[2] أن يشوى له وزرًا، فشوى وأكل منه رجلاً، فسأل السلطان عن رجل الور، فقال: ما يكون للور إلا رجل واحد، فسكت السلطان. فركب السلطان وركب معه الشيخ فإذا طائفة من الور واقفة على رجل واحد، فقال ناصر الدين للسلطان: أنظر كل واحد منها برجل واحد. فدق السلطان طبل باره[3] فمدوا أرجلهم. قال السلطان لناصر الدين أكلت الرجل وكذبت.

---

(١) ابن عثمان لقب سلاطين العثمانيين عند أهل مصر فى ذلك العصر.

(٢) يعنى نصر الدين خوجة وهو عند الترك مثل جحا.

(٣) طبل باز = طبال. واستعمله هنا بمعنى الطبل.

قال أيضًا ناصر الدين: يا فلان لإيش ما دقيت طبل بازك ذلك الوقت حتى يمد الوز المشوى رجله الملتم.

حكاية:

لما خطبوا بنت ناصر الدين فقال للمخاطبين لا آخذ منكم لأجل مهرها أقل من خمسين دينارًا، فقالوا له: هذا كثير. فقال: كيف كثير وبنتى حبلى، فقالوا: يا ناصر الدين كلامك ردئ وأتلفت المجلس. فقال لهم: كلامى فى غاية الحسن. لأن الأمس باعوا فرسًا بعشرة دنانير ذهبًا فلما ظهر عليها الحمل وادوا فى الثمن أشرفيين. فبنتى أقل من الفرس ؟ فضحكوا من كلامه فوزنوا خمسين دينارًا.

خاتمة:

قال بعض الحكماء: الهزل فى الكلام كالملح فى الطعام.

من المجلس الثانى

طلعت يوم الخميس رابع شهر جمادى الأولى وقعدوا فى الأشرفية خمسًا وثلاثين درجة، والإمام كان الشيخ محب الدين المكى، ووقع فيه لغز ومسائل إلخ:

محمدة:

مدح جماعة من الأفاضل خبز مدرسة المقام الشريف بالخبز المسلم وفيه ثلاثة وجوه[1]:

(١) هذه الأوجه لا تأتى مع تعريف الخبز بأداة التعريف وإنما يمكن الوجه الأول فقط. ولكن المؤلف مضطرب فى استعمال أداة التعريف لخلو الفارسية والتركية منها.

الأول: أن قلبه كقلب المسلم أبيض.

والثانى: أن هذا الخبز خبز أعظم المسلمين فى هذا الزمان.

لأن أشرف الخلق الملك، وأشرف ملوك الأرض وأعظمهم سلطان الحرمين الشريفين، وسلطان مصر، ويمكن أن يراد به مثل:

أنا أبو النجم وشعرى شعرى[1]

والثالث: أن هذا الخبز يفرق على المسلمين الصالحين القائمين بوظائفهم.

ثم حضر مولانا السلطان بعد أن ذاق الخبز أمر بزيادة الملح حتى يأكله الفقراء مع السعتر بالهين.

قلت: يا أمير المؤمنين، ويا خليفة المسلمين، ويا افضل ملوك الدنيا، ويا سلطان معمورة الغبراء، جاء فى خاطرى حكاية إن كان الدستور فنحكى[2]. فقال لى: أحكى. قلت: عمل جهانشاه[3] التبريزى مدرسة بالخبز الأسود، وفحمية بلا لحم، أخذ فقير زبدية من هذا الطعام والخبز وجاء به قدام السلطان فقال للسلطان كل. ما قدر السلطان أن يأكل منه اللقيمة. فقال الفقير خف من يوم يقول الله تعالى لك: كل عشرة مثل هذه الزبدية. قال السلطان: من شأن إيش، قال: لأجل قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) مع أنك ما تقدر أن تأكل لقيمة. فارتعد بدن السلطان من هذا

---

(١) يعنى أن وصف السلطان بهذه الصفة كالإخبار عن الشىء المعروف، بنفسه.

(٢) الدستور: الإذن وهى مستعملة فى العامية المصرية اليوم.

(٣) الظاهر أنه جهانشاه احمد ملوك قراقيونلى (٨٤١ - ٨٧٢هـ)

البيان، فأمر بسماط المدرسة مثل سماط العادة السلطانية، وزاد فيه كثيرًا من الأطعمة والحلاوات، ومن جاء بعده من سلاطين اقتدوا به وعملوا فى مدارسهم سماطات عظيمة. يا أمير المؤمنين الخبز والسعتر من عادة الفقراء، فلابد إذا وصلوا إلى السماط السلطانى أن يغتنموا أنواع الأطعمة. فلما سمع مولانا السلطان هذه الحكاية انشرح صدره وقال: إن شاء الله تعالى أعمل فى مدرستى مثل هذا.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: ملك الهند ذهب سمعه وصار أطروشًا، فاشتد حزنه لما دخل عليه أهل مملكته لتعزيته عن سمعه. قال حزنى ما هو من فوت هذه الجارحة، بل حزنى بسبب أنى ما أقدر على سماع استغاثة المظلوم، ولكن إذا ذهب سمعى ما ذهب بصرى. فأمرت لكل مظلوم أن يلبس الأحمر حتى إذا رأيته عرفت أنه مظلوم فأقربه فأنصفه فينتصف.

من المجلس الرابع

طلعت يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى وقعدوا فى الأشرفية ثمانيًا وعشرين درجة، والإمان كان الشيخ محب الدين الكى ووقع فيه مسائل.

السؤال الرابع:

قال مولانا السلطان: زكاة أربعين شاه واحدة. فما زكاة ثمانين شاه ؟

الجواب:

قيل: شاتان. فضحك السلطان وقال: هذه مسألة تعبدية لا قياسية حتى يبلغ مائة وإحدى وعشرين فشاتان.

المناسب لهذا المجلس:

قيل: وقف ناصر الدين[1] على باب مسجد والمؤذن ينادى حى على الصلاة والناس يسارعون من كل مكان فقال: والله لو قال حى على الزكاة أو على الصدقة ما جاءه من كل عشرة واحد.

الخاتمة:

سئل أنوشروان. أنت شيخ وتجمع المال. فقال: الإنسان إذا مات ويخلف لأعدائه، خير من أن يحتاج فى حياته إلى أصدقائه.

المجلس الخامس

طلعت يوم الخميس حادى عشر جمادى الأولى وقعدوا ستة عشر درجة فى الأشرفية، والإمام كان الشيخ كمال الدين البرقوقى.

قال حضرة مولانا السلطان: إيش الخبر فى المدينة. قال: المؤذنون يدعو لكم جميع من فى البلد.

قال مولانا السلطان: وما سبب الدعاء. فخافوا إظهار سببه لئلا يغتاظ السلطان.

قال سيدى إسماعيل: لأجل رواح الحج. قال السلطان: كل سنة يروح الحج.

ثم ذكر مولانا السلطان: أريد أن أبعث هذه المراكب مع العسكر إلى مكة وأبنى قلعة فى جدة وقلعة فى ينبع.

---

(١) يعنى نصر الدين خوجة، وهو جحا الترك.

قلت: أهل البلد يدعون لمولانا السلطان لأجل هذا.

ثم سأل مولانا السلطان هل بطل الحج فى الزمان القديم أم لا ؟

فقيل: مذكرو فى تاريخ الملك الظاهر بيبرس أن مدة عشر سنين بد قتل خليفة بغداد بطل الحج. ومهما بعث الملك الظاهر القفل يأخذه العرب. بعد هذا بعث الف مملوك مع الكسوة، وفى هذه السنة أيضًا بعث هلاكو خان كسوة مكة مع عشرة آلاف طاطر[1] من عسكره. فألبسوا كسوة الملك الظاهر تحت وكسوة هلاكو فوق. فاتفق الططار مع أمير مكة أن ينبهوا قافلة الحج المصرى. لما عرف أمير المحمل اتفاقهم راح نصف الليل وقتل أمير الطاطر فى خيمته، فركب أمير مكة مع بقيتهم وفعل بالمسلين ما فعل، ثم بعث أمير المحمل إلى أمير مكة مكتوبًا مضمونه: العجب أنتم تساعدون الكفار. ثم قال أمير مكة: رح فهات سلطانك حتى تنتقم منا بشرط أن يركب عسكره الخيل البلق. ونهب القفل. ثم جاء أمير المحمل وذكر القصة التى وقعت من أولها إلى آخرها عند الملك الظاهر. فأمر بجمع الخيول البلق من البلاد فوجدوا سبعة آلاف فركب عليهم سبعة آلاف من الفرسان الشجعان، وبعث فى السنة الثانية إلى الحج. ففى عاشر شهر ذى الحجة جاء الخبر أن هلاكو خان بعث ثلاثين ألفًا إلى مكة فى هذه السنة، فركب الملك الظاهر بنفسه مع هجين ووصل إلى مكة بعشرين يومًا. ولما ألتقى الجمعان وقع بينهما قتلا عظيم وركب مع الطاطر نائب مكة. وكان فى الآخر الظفر مع الملك الظاهر، وقتل أمير مكة ونهب عسكر الططر، فرأى الملك الظاهر شيخًا شريفًا يبارز مع هؤلاء، فسأل الملك الظاهر هذا الشريف من أنت ؟ فقال: أنا رجل شريف

(١) يعنى تتارى.

ظهر عندى عدم حقية أمير مكة لأجل مساعدة الكفار فأغزيت فيهم. فأعجب الملك الظاهر كلامه وألبسه خلعة النيابة. وكان اسمه الشريف عجلان، وهو جد الشرفاء الآن[1].

المناسب لهذا المجلس:

أنه قال كسرى: إذا أراد الملك أن يستخدم عاملاً فى شئ فالواجب أن يحقق أخلاقه وصبره وتدبيره لنفسه ومنزله، فإن كان حسن الخلق شديد السياسة صابرًا على المشاق فليستخدمه وإن كان ضد ذلك فليحذر منه.

الخاتمة:

قال النبى ﷺ: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

من المجلس السابع

طلعت يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الأولى، وقعدوا فى الأشرفية خمسًا وعشرين درجة، والإمان كان الشيخ محب الدين المكانى، ووقع فيه لغزان ومسائل الخ:

المناسب لهذا المجلس:

أنه سئل إسكندر: أى سلطان أطهر السلاطين ؟ فقال: الذى أمن فى ظل عدله الطاهرون، وخاف منه المذنبون.

---

(١) ليس فى أمراء مكة أيام بيبرس من اسمه عجلان وإنما تولى عجلان فى القرن الثامن سنة ٧٤٥ فى أيام بنى قلاوون.

الخاتمة:

قال النبى ﷺ؛ إذا دخل أحد فى بلد ليس فيها سلطان فلا تقعدوا فيه جوافًا.

قال أم أبو الحسن[1]: لكى عضو موكل به ملك.

قال مولانا السلطان: أى ملك موكل بالبطن؟

حادثة:

جاء خبر ضعف الشيخ جلال الدين السيوطى. فقرأ مولانا السلطان سورة الفاتحة ثلاث مرات لأجله، وتوفى فى الجمعة.

من المجلس الثامن

طلعت يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، وقعدوا فى الأشرفية خمسًا وخمسين درجة، والإمام كان الشيخ عبد الرزاق، وحضرة مولانا السلطان مدح السعتر فى تلك الليلة كثيرًا ووقع فيه مسائل الخ..

المناسب لهذا المجلس:

قيل لما قرب موت إسكندر كتب إلى أمه من بلاد الططر: أما بعد يا أمى اتركى سنة النساء فى البكاء والجزع، كما تركت سنة الرجال من القبائح والبدع، والمقصود من هذا الكتاب ألا تحزنى ولا تبكى لأجلى ولا تخالفى قولى، وقد علمت أن الموضع الذى أروح إليه خير من الموضع الذى أنا فيه، يا أمى اطهرى واستعدى لاتباعى، فقد انقطع بالموت من الدنيا ذكرى بالرأى والتدبير، فتحيى ذكرى بأن تصبر وترضى بالتقدير، فلا تعملى بى إلا ما

(١) هذا اسم عجيب لأحد جلساء السلطان، وكان ضحكة المجلس فيما يظهر.

أحبه، لأن علامة المحب أن يعمل بما يحب حبيبه، ويدع ما يكرهه، يا أمى بعض الناس يدلك إلى المصيبة ليعرف طاعتك من المعصية، ويجرب قبولك قولى من الخلاف، يا أمى فى وقت هذه البلايا كان فكرى مشغولاً بأحوال الرعايا، واعلمى أن الخلائق تحت الكون والفساد من الابتداء إلى الانتهاء والإنسان بعد انتهائه لابد أن يرجع إلى مقامه الأصلى، فاعتبرى يا أم بمن مضى من القرون الماضية والأمم السالفة، فانظرى إلى أنبيتهم العالية، ومساكنهم الخالية، واعلمى يا أمى أن ابنك ما رضى أن يكون مثل الملوك الصغار، فالواجب أن تكون أعمالك مثل أمهات الملوك الكبار، وليكن صبرك بقدر قدرك، والعمى أن كل شىء أوله صغير ثم يكبر، إلا المصيبة فإن أولها كبير ثم تصغر، يا أم ارضى بالتقدير، وخلينى للعليم القدير.

الخاتمة:

قال رسول الله ﷺ: الموت هدية المؤمن.

من المجلس التاسع

طلعت يوم السبت عشرين جمادى الأولى، وقعدوا فى الأشرفية أربعين درجة، والإمام كان الشيخ محب الدين الحلبى.

قال صاحب العقائق: إن هارون الرشيد جمع الحكماء، وطلب منهم مدح قلة الكلام.

قال الأول: الكلام جوهر إذا تكلمت به بقى مثل الخرز.

وقال الآخر: الكلام سيف إذا تكلمت به خليته فى يد الغريم.

قال الآخر: الكلام فرس فإذا تكلمت أركبت عليه غيرك.

درة:

قال مولانا السلطان: كثرة الكلام مطلقًا ما هو مذموم، لأن كثرة بحث العلم وكثرة النصح محمودة.

ثم قال يا رأس أسود كثرة الكلام ما هو مليح؟ قلت له: اسمع كلام حضرة مولانا السلطان فقال: السلطان ما قال إلا لأجلكم لا لأجلى[1]، قال مولانا السلطان: ما قلت يا شيخ أحمد إلا لأجلك.

المناسب لهذا المجلس:

ثلاث كلمات من الملوك الثلاثة:

قال كسرى: ما ندمت أبدًا من كلام ما تكلمته، وندمت من الكلام الذى تكلمت به.

قال قيصر الروم: الكلام الذى تكلمت به خرج من تحت حكمى وتصرفى، والذى ما تكلمت به هو تحت تصرفى.

قال خاقان الصين: كثرة الكلام لا يخلو من الغلط والأسقام.

الخاتمة:

قيل: جمع ملك الهند أربعين حملاً من الكتب فأمر بتلخيصه، لخصوه بأربع كلمات:

الأول: دلالة السلاطين بالعدالة، الثانى: وصية الرعايا بالإطاعة، الثالث: التكلم بقدر الحاجة، الرابع: الأكل بقدر قوة البدن والطاقة.

---

(١) يعنى أن الخطاب لهم لا له.

من المجلس العاشر

طلعت يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى وقعدوا فى الأشرفية اثنتين وثلاثين درجة، والإمام كان الشيخ كمال الدين البرقوقى، ووقع فيها الألغاز ومنام الشيخ شهاب الدين المحلى:

المنام:

رأى الشيخ شهاب الدين المحلى فى المنام أنه جاءت جماعة لابسين الحديد بهيئة التركمان وقصدوا ملك مصر، ثم جاء النبى ﷺ مع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، وقال: أنا ضامن سلطان مصر ارجعوا، وقال لى رح وكلم السلطان وقل له ليذكر ليالى العادة فى الدهيشة مع الشيخ تمرتاش والشيخ صانتباى والشيخ شاهين.

بعد عرض المنام قال حضرة مولانا السلطان: الحديد هو القوة بدليل أنى يومًا من الأيام رحت إلى بيت الأمير يشبك الدوادار ورأيت فيها أميرًا وقال لى: يا أمير قانصوه رأيتك البارحة فىّ المنام وأنت فى طوق كبير من الحديد ثم فى النوم عرضت هذه الواقعة على الأمير يشبك الدوادار فقال لى فى الجواب: الحديد هو القوة يحصل له دولة عظيمة وقوة كبيرة بدليل (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) لابد أن تحصل لك السلطنة، وهذه الحكاية كانت قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: دخل شخص عند السلطان شاه رخ[1] وقال: رأيت البارحة

---

(١) شاه رخ: ابن تيمور لنك.

فى أذنك درًا بقدر البطيخ الصيفى فقال شاه رخ استحى من هذا الكلام، هل يوجد الدر أولاً بقدر البطيخ فى الدنيا، وهل يسع فى أذن شخص[1].

قال الفقير فى جوابه: أحمد الله وأشكر له، لو رأيته بقدر قبة الصخرة فى أذنك إيش عملت به.

الخاتمة:

قال النبى ﷺ: نوم الأنبياء على ظهورهم، ونوم المؤمنين على أيمانهم، ونوم الكفار والمنافقين على شمائلهم، ونوم أهل النار على وجوههم.

المجلس الحادى عشر

طلعت يوم الخميس خامس عشرين جمادى الأولى، وقعدوا فى الأشرفية اثنتين وثلاثين درجة، وكان الإمام الشيخ شمس الدين السمديسى، ووقع فى حكايات ومسائل، وكمل شاه نامه فى هذه[2] الأيام.

قلت: من عجائب دولة مولانا السلطان إتمام هذا الكتاب باسمه الشريف بالتركى.

حكاية:

قال مولانا السلطان: قصد السلطان محمود بقاء اسمه إلى يوم القيامة، قيل له: ابن العمارات العالية، فقال: تخرب بعد ثلاثمائة أو أربعمائة سنة، فاتق رأيهم على تصنيفات الكتب باسم السلطان محمود، فأمروا بنظم كتاب شاه نامه وواعدوا الفردوسى بإزاء كل بيت مثقالاً من الذهب، فلما كمل قال

---

(١) يسع فى أذنه الشخص ترجمة الكلمة الفارسية كنجد.

(٢) ينظر الكلام على الشاهنامه التركية فى المقدمة.

وزيره: يكفى لشاعر فى كل بيت مثقال من الفضة وكان عدد أبياه ستين ألفًا. فبعث السلطان ستين ألف مثقال فضة إلى الفردوسى، وكان فى الحمام فأعطى عشرين ألفًا أجرة الحمامى، وبعشرين ألفًا شرب فقاعًا، وعشرين ألفًا أعطى لمن جاء بها، فلما سمع السلطان غضب عليه وأمر بقتله بعذاب أليم، واختفى الفردوسى، فأنشد هجو السلطان وراح نصف الليل عند خزين دار[1]، وكان صاحبه وطلب كتاب الشاه نامه ليطالعه، فأخذ الكتاب وكتب فيه هجو السلطان محمود، وهرب منه، وكان السلطان فى الصيد يومًا من الأيام من الأيام فطلب كتاب شاهنامه، فلما فتح رأى هجوه فيه فانغاظ غظيًا عظيمًا وأمر بقتل الوزير، وبعث ستين ألف مثقال ذهبًا إلى مدينة الفردوسى، لما وصلت هذه الفلوس إلى باب مدينة طوس خرج تابوت الفردوسى من باب آخر، فعرضوا هذا الذهب على بنته ما قبلته، فأمر السلطان بصرف الفلوس على العمارة لأجل روح الفردوسى فعملوا قطرة عظيمة وهى الآن موجودة[2].

حكاية:

قال مولانا السلطان: اشتكوا عند السلطان محمود أن إياسًا يروح كل يوم إلى بيت خلوة وفى هذا البيت جوار بيض، فجاء السلطان إلى بيت إياس ودار جميع بيوته ثم قصد الدخول فى البيت المعهود، فامتنع إياس فبالغ السلطان فقال: أنا أستحى أن تدخلوا إلى هذا البيت، قال السلطان لابد أن أدخل قال إياس: إذا كان كذلك فادخل أنت وحدك، ففتح باب المخزن

---

(١) الخازن.

(٢) هذه قصة شائعة ينظر نقدها فى مقدمة الشهنامة العربية.

ودخل مع السلطان فرأى خرقة مقطعة فى البيت، قال السلطان، ما هذا: فقال: هذه الخرقة كانت لباسى قبل خدمتكم أجى كل يوم وأنظر إليها حتى لا أنسى فقرى أولاً وأعرف قدر خدمتك ونعمتك ثانيًا.

حكاية:

قال مولانا السلطان: طلب السلطان محمود المماليك فجابوهم فقال إياس الخاص: يا سلطان اشترنى لله تعالى، وعندى معرفة بالأحجار والدواب والإنسان، فاشتراه وخلاه فى الطبقة، فوقع عند السلطان لؤلؤ كبير كثير الثمن فوقع الاختلاف فى ثمنه، فقال السلطان: هاتوا إياسًا، فلما نظر إياس إلى اللؤلؤ قال: فى جوفه دود، فأمر السلطان بكسر اللؤلؤ، الأمراء امتنعوا، وأمر إياسًا فأخذه وكسره فخرج الدود من جوفه، ثم قال الأمراء حسدًا عليه: يا قيل العقل بأى سبب كسرت هذا الجوهر؟ فقال: أنا ما كسرت الجوهر بل كسرت الحجر وأنت كسرتم الجوهر الحقيقى وهو كلام الملك، فتعجب محمود من قوله وزاد فى رزقه كل يوم رغيفين، ثم جاء فرس هدية، قال السلطان: هاتوا إياسًا لينظر الفرس أيضًا، لما نظر إليه قال الفرس شرب لبن البقر، فسألوا صاحبه قال: نعم، ماتت أمه وهو صغير، فربيناه بلبن البقر، قال الملك يا إياس بأى شىء عرفته؟ قال: بأن رواحه مثل رواح البقر، فزاد فى رزقه كل يوم رغيفين، ثم طلبه بعد هذا وقال يا إياس أنت قلت أنا أعرف الإنسان فأكشف حالى، قال: أخاف أن أقول، قال: لا تخف، قال: العفو يا مولانا السلطان، ما أنت إلا ابن الخباز لا ابن سبكتكين، فانغاظ السلطان، فراح عند أمه وسألها ابن من؟ وقال إن صدقت خلصت من يدى وإلا أقتلك فى الساعة، قال: أنا كنت مزوجة بسبكتكين وكان عقيمًا، وكان يريد ألا

يرث ملكه أحد من غير بيته، وعملت حيلة وقلت أنا حامل، بعد تسعة أشهر أخذت ابنًا من خباز وقلت ولدته، ثم قال الملك لإياس بأى شيء عرفت أنى ابن الخباز؟ قال بزيادة الخبز فى وظيفتى، فرباه تربية عظيمة فوق الحد والوصف.

المناسب لهذا المجلس:

قول على بن أبى طالب رضى الله عنه، شرف الشخص بالعلم والأدب، لا بأصل والنسب.

الخاتمة:

قال عمر بن عبد العزيز: لو كان فى الدنيا جوهر أعلى من الكلام، لأنزل من السماء على الأنبياء عليهم السلام.

من المجلس الثانى عشر

طلعت يوم السبت سابع عشرين جمادى الأولى، وقعدوا فى الأشرفية سبعًا وثلاثين درجة، ووقع فيه مسائل، والإمام كان الشيخ محب الدين المكى.

السؤال الثالث:

ما معنى الجركس؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: أصل الجركس هو صاركس، جاء ببنى غسان فى خلافه عمر بن الفاروق رضى الله عنه وأسلموا وحجوا وكان، سلطانهم فى الطواف وقدم فقير عليه فدفعه فوق ومات الفير، فجاء جماعة الفقير

وطلبوا من القاتل الدم فحكم عمر بقتل القاتل أو يرضيهم وما رضوا منه إلا بقتله.

قال السلطان: أمهلونى ثلاثة أيام، وفى ذلك الليل هرب وجاء عند هرقل القيصر وتنصر فبعثهم هرقل إلى بلاد الدشت، والجركس من نسلهم[1].

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: كان رجل طويل الأنف ومدح نفسه عند جماعة بأنه رجل متحمل المكاره، قيل له: لو ما كنت صابرًا على المكاره لما قدرت أن تحمل هذا الأنف ستين سنة.

الخاتمة:

قال النبى عليه السلام: أوصيكم بالسمع والطاعة وإن كان سلطانكم عبدًا حبشيًا.

من المجلس الثالث عشر

طلعت يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى، وقعدوا فى الأشرفية ستًا وثلاثين درجة، والإمام كان الشيخ شمس الدين السمديسى، ووقع فيه مسألة الخ.

الخاتمة:

قال الغزالى: اطلبوا العلم والعمل والمال حتى تجدوا رياسة العام والخاص وعند الله.

---

(١) يعنى قصة جبلة بن الأيهم وعمر الفاروق، وكان الغورى يرى أن الجركس من الغساسنة.

الحمد لله والمنة، هذه الصفات موجودة فى سلطان العالم، خلفية العرب والعجم، يوسف مصر، شمس الخلافة، فلك الدولة والسعادة، أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، الملك الأشرف، عزيز مصر، أبو النصر، قانصوه الغورى عز نصره.

رب كما جعلت أغصان اللسان فى بساتين أفواه الإنسان مثمرة لذكر خيره الذى هو خارج عن الوصف، اجعل مدة خلافته أكثر من ألف ألف، والملائكة نظارة بمواكبه الشريفة صفًا بعد صف.

الواقعة:

وفى يوم الخميس ثانى جمادى الآخرة انتقل القاضى شهاب الدين ابن فرفور، من دار الغرور إلى جوار رحمة الرب الغفور، خفف الله حسابه يوم النشور.

الروضة التاسعة

فى مجالس جمادى الآخرة

من المجلس الأول

طلعت يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخرة، وقعدوا فى الأشرفية خمسًا وأربعين درجة، وكان الإمام الشيخ محب الدين الحلبى، ووقع فيه مسائل وحكاية. الخ.

مرحمة:

ثم سألنى مولانا السلطان فقال: أنت حجيت يا شريف؟ قلت: لا، فقال: ألا تحتج، قلت: نعم.

ثم قال: أنت دخلت بلاد الأكراد، قلت: خفت أن أدخل.

قال مولانا السلطان: لإيش، قلت: دخل شريف إلى بلادهم فعززوه وعظموه غاية التعظيم والتكريم، ثم جاءوا وقالوا له إن بلادنا ليس فيها تربة شريف شهيد وأنت رجل فى غاية الديانة، مقصودنا أن نقتلك ونبنى على قبرك تربة عظيمة، هل نقتلكم بسيف أو بخنجر؟ فلما سمع الشريف هذا الكلام منهم هرب فى نصف الليل وترك حوائجه عندهم.

حكاية:

قال مولانا السلطان: إن الأكراد يضيفون الضيف غاية الضيافة، وإذا خرج الضيف من بينهم يجيئون قدامه ويقولون له: إن الأكراد يعرونك، فنحن أولى بالتعرية فإنك أكلت خبزنا وملحنا.

قال أيضًا: هم بعكس العرب: قيل أعرابى قصة قتل واحد وجاءت

زوجته بغيبة الرجل فأعطته رغيفًا، فلما رأى العرب أنه أكل من رغيفه قال: دمك ومالك صار حرامًا علينًا، من ناولك هذا الخبز؟

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: دخل لصوص الكرد إلى بيت رجل فقير (مهما فتشوا ما وجدوا فيه شيئًا[1]) قال صاحب البيت: يا فتيان هذا الذى تطلبونه بالليل قد طلبناه بالنهار فلم نجده[2].

الخاتمة:

قيل، حضر أعرابى فى سماط الحجاج فجابوا الحلاوة، قصد الأعرابى أكلها، قال الحجاج من يأكل من هذا نضرب رقبته، فامتنع الناس كلهم، وكان الأعرابى ينظر إلى الحجاج مرة وإلى الحلاوة مرة وقال: أيها الأمير أوصيك بأولادى خيرًا، فمد اليد إلى الحلاوة فأكل منها، وضحك الحجاج حتى استلقى وأمر له بصلة.

من المجلس الثانى

طلعت يوم الأربعاء ثامن جمادى الأخرى فى الديوان مع حضرة مفتاح أبواب البر، القاضى كاتب السر والقاضى ناظر الجيش وطلبت إجازة السفر.

قال حضرة مولانا السلطان: ما سبب سفرك؟ قلت قولكم البارحة أولاً، وصلة الرحم ثانيًا فقال: البارحة مزحت، تروح من البر أو من البحر؟ قلت: أروح من البر، فقال: ما نبعثك إلا من البحر وبلا حج ما نخليك أن تروح، وفى الأخ رضيت بالبحر.

---

(١) مهما هنا تقابل بالفارسية: جندانكه، وظاهر فى العبارة المحاكاة الفارسية.

(٢) هذه الحكاية فى كلستان الشيخ سعدى الشيرازى.

قال مولانا السلطان: الغالب أن الشريف مفلس فى هذه الأيام، قلت: وكيف لا؟ أعطيتنى وظيفة التصوف فى المدرسة وما وصل إلى جديد واحد منه[1].

قال مولانا السلطان: أعطيت الوظيفة نعم، قلت اسمع يا قاضى عبد القادر وأنا من المائة.

قال السلطان: ما معنى هذا؟ قلت: القاضى يقول لى أنت[2] خارج عن جماعة المتصوفة.

قال مولانا السلطان: أنت من المائة بدل شهاب الدين الرملى، وزاد عليها من الجوالى بمصر كل يوم نصف فضة.

ثم قرأنا الفاتحة ونزلنا

المجلس الثالث

طلعت يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة وقعدوا ثمانى عشرة درجة فى الأشرفية، وكان الإمام سيدى على الأخميمى، ووقع فيه مسائل:

السؤال الأول:

قال الله تعالى فى حق يحيى (سيدًا وحصورًا)

وقال فى حق مالك يوسف (وألفيا سيدها لدى الباب)

كيف يجوز مدح كافر بمدح نبى؟

---

(١) الجديد سكة لا تزال تذكر على لسان عامة مصر.

(٢) بنى السلطان مدرسة فى الغورية وأجرى فيها أرزاقًا على الصوفية.

الجواب:

قال مـولانا السلطان: وصف الله تعالى مـالك يوسف بالسيـد لأنه ما التفت إلى شكوى زليخا وحكم بينهما بالحق، ولهذا وصفه بالسيد.

السؤال الثانى:

ما حكمة وصفق مالك يوسف بوصف العزة فى قوله (امرأة العزيز) مع أنه قال فى حق نبيه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز)؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: بسبب إعزاز يوسف فى قوله (أكرمى مثواه) وصل إلى درجة العز.

السؤال الثالث:

يوسف الصديق هل وصل إلى درجة السلطنة أم لا؟

الجواب:

قيل: نعم بدليل (رب قد آتيتنى من الملك) وضعفه ظاهر.

حكاية:

قال مولانا السلطان: إن الريان كان سلطانًا ذا شـوكة وكان له فى مصر ثلثمائة وستون مقعدًا ويجلس كل يوم فى مقعد، وفى سنة كاملة يدور جميع المقاعد، وسافـر إلى بلاد الحبشة اثنتى عشـر سنة، وكان يوسف نائبًا عنه فى مصر وما تغير حال مملكته قط بغيبته.

قال صاحب العقائق: القميص الذى لبسه يوسف فى الجب لما لبسه أبوه ارتد بصيرًا، وبعد هذا كل من يلبس هذا القميص لو كان شيخًا يصير شابًا.

درة:

قال مولانا السلطان: يا ليت هذا كان فى خزينتنا حتى نبلس به ابن عبد العزيز ليصير شابًا، قلت: هو صار شابًا بسبب التفات مولانا السلطان.

حكمة:

قال مولانا السلطان: ملوك الصين يسمونهم بالخاقان قديمًا، وبالغفور حديثًا.

وملوك الترك العظام يسمونهم خان، ودونهم يسمونهم بكوركان[1].

وملوك العجم يسمونهم قبل الإسلام بكسرى، وبعد الإسلام يسومنهم بادشاه.

وملوك الروم فى الجاهلية بقيصر، وفى الإسلام يسمونهم بخوانكار[2].

وملوك الهند يسمونهم قديمًا براى، وحديثًا يسمونهم بفور.

وملوك اليمن يسمونهم فى الجاهلية بتبع، وفى الإسلام يسمونهم بالمشايخ.

وملوك مصر يسمونهم فى الكفر بفرعون، وفى والإسلام يسمونهم بالعزيز.

وملوك الحبشة يسمونهم بالنجاشى.

وفى جميع بلاد الإسلام الآن يسمون ملوكهم سلطان وبك.

---

(١) معناه بالغمولية: الصهر، وبه لقب تيمور.

(٢) يعنى سلاطين السلاجقة والعثمانيين فى آسيا الصغرى التى كانت تسمى بلاد الروم، وكلمة خوانكار (وتكتب أحيانًا خنكار) مختصرة من خدواندكار بمعنى السيد أو الأمير.

المناسب لهذا المجلس:

قول سيد العرب والعجم، ﷺ: سيد الكلام العربية، وسيد كلام العربية القرآن، وسيد القرآن آية الكرسى، وسيد الجبال طور سينا، وسيد الأشجار طوبى، وسيد البلدان مكة، وسيد السودان لقمان، وسيد فارس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال، وسيد القوم خادمهم.

الخاتمة:

اشترى رجل شيئًا فمر بسلمان الفارسى رضى الله عنه وهو لا يعرفه، وكان أمير المدائن، وقال له: احمل هذا يا علج، ولقيه واحد وقال ادفعه إلى أيها الأمير، فقال لا والله ما يحمله إلا العلج.

من المجلس الرابع

طلعت يوم السبت حادى عشر من جمادى الأخرى، وقعدوا فى الأشرفية ثلاثين درجة، وكان الإمام الشيخ عبد الرازق، ووقع فيه مسائل الخ.

حكاية:

قال صاحب العقائق: خرج رجل من مصر ودار البلاد مدة مديدة من ولما وصل إلى الصالحية ومعه خرج من الأقمنشة جاء لص نصف الليل وربط رجله بحبل إلى مسمار وأخذ الخرج من تحت رأسه، فجاء اللص إلى مصر ودق بابًا وخلى الخرج عندهم أمانة، ثم جاء الخواجة[1] إلى بيته مهمومًا

(١) يعنى التاجر، وكلمة الخواجة (والواو غير ملفوظة) تقال للسيد والتاجر، وبها سمى تجار الأوربيين ثمن قيلت لكل أوروبى.

فلقى خرجه فسأل امكرأته، فقالت أمانه لجماعة غرب، فبعد يوم جاء اللص ودق الباب، فبعث الخواجة له الحبل والمسمار.

المناسب لهذا المجلس:

قيل: رجل اشترى الأحجار لأجل البناء فجاء اللص وأخذها، فالتقى بصاحب الحجر فقال له اللص والله ما عرفت أنها لك، فقال صاحب الحجر هب أنك ما علمت أنها لى، أما علمت أنها ليست لك؟

الخاتمة:

سرق خرج لشخص وفيه ثيابه وأسبابه، قيل له وجب أن تقرأ سورة يس وتعملها تعويذًا، قال المصحف الكامل كان أيضًا فى الخرج سرقوه.

من المجلس الخامس

طلعت يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الآخرة، وقعدوا خمسين درجة فى الدهيشة، والشريف ما كان حاضرًا فى خدمته، فسأل عنه السلطان، فقلت: الشريف مريض ثم قال هل عنده أحد يخدمه؟ فقلت: عنده جارية سوداء، قال السلطان: ليله ظلام ونهاره ظلام، وكان الإمام الشيخ محب الدين المكى، ووقع فيه حكايات الخ.

من المجلس الثامن

طلعت يوم الخميس ثالث وعشرين جمادى الأخرى، وقعدوا فى الأشرفية خمسًا وأربعين درجة، ووقع فيه مسائل، وكان الإمام الشيخ عبد الرازق.

حكاية:

قال فى التاريخ: ذكر الحاكم بأمر الله[1].

لطيفة:

قال مولانا السلطان: ينبغى أن يقال: ذكر الحاكم بغير أمر الله.

غريبة:

ووقع البحث فى نهاية زيادة النيل، قيل: اثنين وعشرين ذراعًا، قال أم أبى الحسن: أنا رأيت الماء فى القرافة.

قال مولانا السلطان: هذا جزاف لأنه لو زاد الماء خمسة وعشرين ذراعًا ما يصل الماء إلى القرافة.

قال مولانا السلطان: هذا جزاف لأنه لو زاد الماء خمسة وعشرين ذراعًا ما يصل الماء إلى القرافة.

عجيبة:

ذكروا فى التاريخ زيادة شط بغداد وتخريبه ووصول الماء إلى دار الخلاف فركب الخليفة على مركب وما وجد طعامًا يأكله أيامًا.

السؤال الأول:

قال مولانا السلطان: هل تجوز الزكاة على اليهودى والنصارى فى المذاهب الأربعة؟

قلت: عند الإمام أحمد يجوز أن يكون العامل نصرانيًا أو يهوديًا.

---

(١) يعنى أنهم كانوا يقرءون كتابًا فى التاريخ وفيه فصل عنوانه: ذكر الحاكم بأمر الله.

السؤال الثانى:

قيل: هل يجوز للشريف أن يأخذ الزكاة؟

الجواب:

قالوا: لا.

قال مولانا السلطان: ولا الصدقة أيضًا، لأنهم من أولاد أشرف المخلوقين، فبسبب أخذ الزكاة والصدقة تكسر حرمتهم، بل لابد من رعاية الأشراف من جهة الخُمس[1].

السؤال الثالث:

هل تجوز الزكاة لليتيم؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: لابد من رعاية الأيتام مثل أولاد الصلب.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: الأمير نصر أحمد السامانى[2] كان من كبار سلاطين سمرقند، وكان له فقيه وهو صغير، فلأجل التعلم ضربه كثيرًا، وكان فى خاطر السلطان أنه إذا تولى المملكة فأول حكمه أن يأمر بضرب الفقيه، لما تسلطن بعث طواشيًا مع الفلق والعصا، لما رأى الفقيه هذا عرف أنه يوم الانتقام والجزاء. فأخذ سفرجلا وراح إلى خدمته، قال له الملك: كيف حالك وما بالك؟ فأخرج الفقيه السفرجل وقال: هذه الفاكهة اللطيفة لا تحصل إلا من

---

(١) خُمس الغنائم.

(٢) يعنى نصر بن أحمد وهو الرابع من الملوك السامانيين (٣٠١ - ٣٣١).

العصا، وهذه الصفات المرضية والأخلاق الحميدة التى فيك من هذا، وذلك الوقت الأمر أمرك والحكم حكمك، فأمر له بخلعة فاخرة.

الخاتمة:

قال إسكندر: ينبغى للعاقل أن يخاطب الخصم مخاطبة الطبيب المريض.

من المجلس العاشر

طلعت يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى الأخرى، وقعدوا فى الدهيشة أربعين درجة، وكان الإمام الشيخ كمال الدين. ووقع فيه مسائل:

السؤال الأول:

مناقشة الخلافة والسلطنة:

قال مولانا السلطان: إذا كان السلطان فى الجنازة حاضراً من الأولى بالإمامة؟

الجواب:

قلت: السلطان فى مذهب أبى حنيفة وقول الشافعى القديم ومالك وأحمد رحمة الله عليهم.

السؤال الثانى:

ثم من؟

الجواب:

قلت: القاضى.

قال أم أبى الحسن: الأولى هو الخليفة.

قلت: اسم الخليفة ما هو مذكور فى كتب الفقه.

قال أم أبى الحسن: لا تصح أنكحه المسلمين فى بلاد ما لبس سلطانهم خلعة الخليفة، وأولادهم أولاد الزنا.

قلت: فعلى هذا أولاد بلاد الروم والعرب والعجم كلهم أولاد الزنا، لأن سلاطينهم ما لبسوا خلعة الخليفة قطة.

المكابرة:

قيل: أى شىء فى بلاد العجم صحيح حتى تكون سلطنتهم أيضًا صحيحة؟

الجواب:

قلت: من يقول هؤلاء خلفاء، ومن ولاهم[1]؟

حكاية:

قبل هذا التاريخ بأربعين سنة[2] بعث خليفة مصر خلعة إلى سلطان العجم جهانشاه[3] فقعد فى بابه القاصد مدة ستة أشهر فذكروه عند السلطان، لما دخل المقاصد وذكر قصة الخلعة قال الملك: لو ما كانت غريبًا لقطعت

---

(١) يعنى الخلفاء العباسيين فى مصر.

(٢) سلطان مصر قبل أربعين سنة من تأليف هذا الكتاب كان السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١).

(٣) ينبغى أن يكون المراد جهانشاه بن قره يوسف من أسرة قرا قيونلى الذين حكموا فى العراق وأذربيجان (٧٨٢ - ٧٨٤) وكان ولاية جهاشاه من ٨٤١ إلى ٨٧٢ وكان الخليفة العباسى إذ ذاك المستنجد بالله يوسف (٧٥٩ - ٨٨٤).

لسانك، ثم قال الملك: ألبس خلعة خليفتك أنت، وأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال ما أعطيتك هذا الفلوس لأجل الخلعة ولكن أعطيتك لأنك جئت إلى أبوابنا الشريفة، والعلماء ما أنكروا على السلطان.

حكاية:

بعث خليفة مصر خلعة إلى بلاد ابن عثمان لأجل السلطان محمد[1] الرومى لما دخل فى مجلسه العلى وذكر قصة الخلعة قال السلطان: أنا خليفة الأرض ينبغى أن ألبس الخلعة جميع سلاطين الدنيا، فقطع خلعة الخليفة وقال: ما يستحى ذلك الشويخ أن يتكلم بهذا الكلام وانغاظ يومين، وعلماء الروم ما أنكروه[2].

الجدل:

قال أم أبى الحسن: ما تقولون فى حديث عباس: الخلافة فيك وفى أولادك إلى يوم القيامة؟

الجواب:

قلت: هذا حديث موضوع، لأنه لو كان هذا الحديث صحيحًا لما تقدم أبو بكر على عباس رضى الله عنهما، لأن هذا نص فى العباس، وأيضًا إذا كان الخلافة بالإرث فلابد بعد أبى بكر أن يكون الخليفة ابنه، ويلبس الخلعة عمر من ابن أبى بكر رضى الله عنه.

---

(١) السلطان محمد إما أن يكون محمد بن بايزيد المعروف باسم محمد جلبى (٨١٦ - ٨٢٤) وإما أن يكون محمدًا الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦).

(٢) رواية فيها نظر؛ فإن رسائل السلاطين العثمانيين تدل على تعظيم الخليفة العباسى.

وأيضًا قال أهل السنة: الخليفة الحق بعد النبى عليه السلام أبو بكر، وقال الشيعة: الخليفة على، وما شك أحد من الفريقين فى خلافة عباس.

السؤال الثالث:

قيل: وصى النبى عليه السلام بالخلافة لأبى بكر ثم لعمر ثم لعثمان ثم لعلى رضوان الله عليهم أجمعين.

الجواب:

هذا مخالف لقوم المتكلمين لأنهم قالوا: ما وصى النبى عليه السلام بالخلافة لأحد من الصحابة، بل صار الأمر بعده بالمبايعة، فبايع الصاحبة لأبى بكر رضى الله عنه ثم وصى لعمر، فعمل عمر أمر الخلافة بالشورى بين طلحة والزبير وعثمان وعلى وعبد الرحمن وسعد، وقال: لو اتفق هؤلاء الستة على واحد فهو الخليفة، ولو اتفق أربعة على واحد فاعملوه، ولو اتفق ثلاثة على واحد وثلاثة على واحد فاعملوا من ابن عوف معه، واتفق الثلاثة مع ابن عوف على عثمان فعملوه خليفة، ثم بعد عثمان بقى أمر الخلافة مهملاً فاختار المسلمون على بن أبى طالب.

التحقيق:

وأنت تعلم أن معاوية ما لبس خلعة الخلافة من العباسيين ولا يزيد، وكذلك مروان والوليد، مع أن عبد الله بن عباس كان فى زمانهم.

أعلم أن الخلفاء العباسية ما ولاهم إلا أبو مسلم الخراسانى.

السؤال:

قال مولانا السلطان: ما مقصودك من هذا البحث؟

الجواب:

قلت: أريد أن أخرج نفسى من بين أولاد الزنا، لأن سلاطين بلادنا ما لبسوا خلعة الخليفة قط.

السؤال:

قال مولانا السلطان: أنت دخلت مجالس سلاطين العجم ورأيت مجالسنا؟

الجواب:

قلت: إشكالى ما هو إلا هذا: لأنهم بطول النهار فى الخمر والزمر، ومع هذا لا يشك أحد فى صحة توليتهم، فكيف يجوز أن يشك أحد فى سلطان الحرمين الشريفين وعزيز مصر ويقول: توليته بغير إذن الخليفة لا تصلح؟

السؤال الرابع:

قال مولانا السلطان: كم تكبيرة فى صلاة العيد؟

الجواب:

قلت: يرتعد بدنى وما أقدر أن أتكلم.

قال مولانا السلطان: خفت؟ قلت: لا.

الجواب:

قلت: خمسة فى مذهب الشافعى فى الركعة الأولى بغير تكبيرة الإحرام وتكبير الركوع، وخمسة فى الركعة الثانية، وعند أبى حنيفة رحمه الله فى

الركعة الأولى خمسة مع تكبيرة الافتتاح وأربع فى الثانية فالمجموع ثمانية[1].

المجادلة:

قال كمال الدين البرقوقى: يا مجنون.

الجواب:

قلت: المجنون ما هو إلا أنت.

قال مولانا السلطان: لا تتكلم مع الشريف بالخرق.

جدل:

قال خواص المؤذن: يا مولانا السلطان من ولد فى بلاد ما لبس سلاطينهم خلعة الخليفة لا يليق بهذا المجلس.

الجواب:

قلت: اسكت: قال مولانا السلطان: تخلصت لو جبت الفتوى من الأئمة الأربعة، قلت: لو ما جبت ليضرب رقبتى خضرة المقام الشريف.

المناسب لهذا المجلس:

قول سلطان الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام: الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا وإمارة.

---

(١) تكبيرات العيد عند الحنفية ثلاث فى كل ركعة وقد زاد المؤلف عليها تكبيرتى الركوع.

الخاتمة:

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أعدل الناس يستحق أن يكون أميراً عليكم.

من المجلس الحادى عشر

طلعت يوم السبت ثامن عشرين جمادى الآخرة، وقعدوا فى الدهيشة أربعين درجة، وكان الإمام الشيخ شمس الدين السمديسى، وجاء المماليك الصغار وقرءوا قدام مولانا السلطان جوقًا بعد جوق، وما وقع البحث فى تلك الليلة.

الخاتمة:

قال أفريدون الملك: لابد أن يكون السلطان تام الخلقة، عظيم البطش والقوة، جهير الصوت، لأنه أوقع فى النفوس، تام القامة، سليم الأعضاء والحواس.

وكان العجم يصورون صور سلاطينهم ووقائعهم فى جدران بيوتهم تخليدًا لذكرهم.

وهذا موافق للشريعة الغراء المحمدية (عليه الصلاة والسلام) وهو أنهم قالوا: شرط الإمام أن يكون عاقلاً بالغًا مسلمًا حرًا ذكرًا مجتهدًا شجاعًا ذا رأى وكفاية سميعًا بصيرًا ناطقًا سليم الأعضاء قرشيًا، وإن لم يوجد قرشى مستجمع للشروط فكنانى، وإن لم يوجد فمن ولد إسماعيل، وإن لم يوجد يولى المستجمع من العجم أو من ولد إسحاق.

الحمد لله والمنة، أصل الجركس من بنى إسحاق، وجميع هذه الشرائط

موجودة فى السلطان الأعظم، الخليفة المعظم، عمدة سلاطين الآفاق، وقدوة الملوك بالاستحقاق، مظهر أسرار "جعلنا كم خلائف فى الأرض" سلطان الأقاليم السبع بالطول والعرض، أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، الملك الأشرف أبو النصر، عزيز مصر، قانصوه الغورى، اللهم كما محوت راية الظلم وجعلت آية النهار مبصرة، وصيرت هجوم عصاة دولته عند ارتفاع شعاع صولته كحمر مستنفرة فرت من قسورة، اجعل ذيل مدة بقائه إلى الأبد، وزين ملكه بزينه "ما لم يؤت أحد"[1] بجاه محمد يا واحد يا أحد، إنك بالإجابة جدير يا فرد يا صمد.

* * *

(١) إشارة إلى الآية: وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين.

الروضة العاشرة

فى مجالس شهر رجب

المجلس الأول

طلعت يوم السبت ثالث شهر رجب المرجب، وقعدوا فى الدهيشة أربعين درجة، وكان الإمام الشيخ محب الدين المكى، وسأل حضرة مولانا السلطان جواب مسألة الخلافة؟

قمت وبست الأرض وقعدت فى وسط المجلس وأخرجت الفتاوى، وكان المكتوب فيها:

ما قول سادة العلماء رضوان الله تعالى عليهم فى رجل يقول لا تصح أنكحة المسلمين ولا ولاية حضرة سلطان مصر ثبته الله تعالى على قواعد مملكته بلا استخلاف أمير المؤمنين يعقوب المستمسلك بالله خليفة مصر العباسى، ويصر بهذا القول ولا يرجع بفتوى الأئمة الأربعة، هل للحاكم أن يعزره أم لا؟

الجواب:

كتب الشيخ برهان الدين ابن أبى شريف فى الجواب: الحمد لله الهادى للصواب، ليس الأمر كما قال هذا القائل ومن عاند فى ذلك وأصر على المعاندة يعزر، والله أعلم.

وفى آخره: كتب إبراهيم بن أبى شريف الشافعى.

الجواب:

وصححه الشيخ كمال الدين الطويل.

الجواب:

وصححه القاضى عبد البر بن الشحنة قاضى قضاة الحنفى، وصححه أيضًا الشيخ برهان الدين الدميرى قاضى قضاة المالكى، وصححه قاضى قضاة الحنبلى.

الجواب:

وصححه أيضًا الشيخ بدر الدين الديرى الحنفى.

هذيان:

ثم قال أم أبى الحسن: فخر سلطان مصر على سلاطين الدنيا بأنه هو نائب الخليفة؟

الجواب:

قلت: بقى عليكم شىء وهو أن سلطان اليمن مستقل فى السلطنة بلا نيابة أحد، فكيف يجوز أن يكون سلطان مصر والحرمين الشريفين نائبًا، ولا يفتخر أحد بالنيابة غير الشرعية.

المسألة:

قال حضرة مولانا السلطان: ما تقول فى الملك بيبرس الظاهر أنه لبس خلعة الخليفة؟

الجواب:

قلت: لأجل جبر خاطرهم لأنهم كانوا أولاد الخلفاء العباسية وكانوا مكسورى الخاطر، فقصد الملك الظاهر تعظيمهم ولبس منهم خلعة، وفخر الخليفة أنه لبس منه سلطان مصر، ولا يفتخر سلطان مصر بخلعته.

هذيان:

قال أم أبى الحسن: لو تكلم الشريف هذا الكلام فى زمن السلطان قايتباى لضرب رقبته.

ثم غضب حضرة مولانا السلطان وقال: أنت جئت لتضرب رقبة الناس؟ ما لنا بك حاجة وبالذى يضرب رقبة أصحابنا، كنت فى لعنة الله لولا تضرب رقبته بكره الشرع[1].

درة:

وفائدة كلامك أن قايتباى كان ظالمًا بهذه المرتبة؛ متى رأيت السلطان قايتباى ومتى دخلت مجلسه، أنت تحسب أنا ما أعرفك؟

درة:

وقال له: أنت تقعد فى وسط المجلس بسبب إيش، وتتكلم كثيرًا؟ قم.

درة:

ثم التفت حضرة مولانا السلطان إلى اليمين وإلى اليسار وقال: ما أنتم شاهدون على أنه قال رأس أسود: لا تصح أنكحة المسلمين فى بلاد ما لبس سلطانهم خلعة الخليفة وكلهم أولاد الزنا، ولا يصح أيضًا تولية سلطانهم، روحوا بكرة مع الشريف واشهدوا عند القضاة الأربعة، ومهما يجىء عليه بالشراع اعملوا به.

---

(١) الخطاب الشريف مؤلف الكتاب.

هذيان:

قال: أنا قلت: لا تصح أنكحة المسلمين فى مصر إلا باستخلاف الخليفة.

فغضب عليه مولانا السلطان ثانيًا: وقال: بلاد مصر ليست ببلاد المسلمين أو سلطانها أقل من سلاطين الدنيا؟

فحضار المجلس قالوا له: قم من مقابلة السلطان، فصار كالميت.

جوهرة:

قال حضرة مولانا السلطان: يا شريف أنت وأولاد الروم والمغرب والعجم واليمن كلكم روحوا معه عند القضاة وغروره.

عجز:

وفى آخر المجلس راح أم أبى الحسن وباس رجل الشيخ محب الدين الإمام فشفعوا فيه.

فطلبنى حضرة مولانا السلطان وقال: اصطلحوا ولا تذكروا من هذا الكلام.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل لأنو شروان: ما بال الرجل يتحمل حمل الثقيل ولا يتعب به ولا يتحمل مجالسة الثقيل؟

الجواب:

قال أنو شروان فى الجواب: لأن حمل الثقيل تساعده فيه جميع الجوارح ومجالسة الثقيل تنفرد فيها الروح.

الخاتمة:

قال إسكندر: أضيق الحبوس مجالسة الثقيل.

من المجلس الثالث

طلعت يوم الخميس ثامن شهر رجب، وقعدوا فى الدهيشة سبعًا وعشرين درجة، والإمام كان الشيخ محب الدين الحلبى، ووقع فيه مسائل.

ذكر فى التاريخ كتاب دار إلى إسكندر وهو هذا:

من داراب ملك ملوك الدنيا الذى أنور من السماء إلى ذى القرنين اللص، أما بعد: اعلم أن ملك السماء جعلنى ملك ملوك الأرض، وقد بلغنى أنك جمعت لصوصًا لتفسد فى أرضنا، واعتقدت أن تغلب على بلادنا، فارجع إذا نظرت إلى كتابنا من غير مؤاخذة بسفك الدماء، فإنكم غلام حقير ليس مقلى مقابلك، ابق على نفسك وبلادك وإلا كنت أول مشئوم على ديارك.

جواب الكتاب:

من ذى القرنين بن الفليفوس الملك إلى الذى زعم أنه ملك الملوك وأن جند السماء له، وأن جنود الدنيا منه.

وبعد: فقد كتبت أن إضاءتى كإضاءة الشمس، فكيف يجوز أن يهابك إنسان صغير مثل ذى القرنين، فلا تظن نفسك ملك الملوك وأن نور الدنيا منك، وإنما ملك الملوك هو الله الذى خلق المُلك والمَلك، يؤتى الحكمة من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وإنما أنت إنسان مترف أظهر لك جهلك، سميت نفسك باسم الإله الذى يحى ويميت، وهو حى لا يموت، ويجب عليه

الغضب ممن تسمى باسمه، وكيف يكون ملك الملوك من يموت ويذهب سلطانه ويترك دنياه بغيره، وما أنت إلا ضعيف من الضعفاء ولا تطيق مساواة ذوى القوة والبأس.

والآن أنا متوجه لقتالك لأذيقك مثل ما يذيق الميت ملك الموت، وأرجو النصرة من الإله الذى خلقنى وإياه أعبد وبه أستعين.

واعلم أنك غلوت فى نفسك، وسطوت فى سلطانك.

وأرجو أن يساعدنى الله بقدر ما رفعت نفسك حتى يسمع أهل الأرض، وعليه توكلت وإليه أنيب.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل لبزرجمهر: هل تعرف نعمة لا يحسد عليها صاحبها، وبلاء لا يرحم عليه صاحبه؟ قال: نعم، أما النعمة فهى التواضع، وأما البلاء فهو الكبر.

الخاتمة:

قال جمشيد الملك: هلاك المرء فى العجب والكبر.

من المجلس الرابع

طلعت يوم السبت عاشر شهر رجب، وقعدوا فى الدهيشة عشرين درجة، وكان الإمام سيدى على الأخميمى، وفى تلك الليلة ما غير حضرة مولانا السلطان قماشه، وقعدوا فى الدهيشة من أول طارئ إلى آخر المجلس، ووقع فيه مسائل، وجابوا مماليك الصغار وقرءوا فى المجلس، وكان كثير من الأمراء واقفين فى خدمته، وأم أبى الحسن أيضًا كان واقفًا بينهم.

فراح حضرة مولانا السلطان إلى المبيت فطلب قاضى غزة، فدخل أم أبى الحسن مع القاضى بلا سؤال.

قال حضرة مولانا السلطان: من طلبك يا شيخ أحمد؟ فقام على حيله، وبعد ساعة تكلم وقال: فى يوم بنى الجامع عمرو ابن العاص عمل فى ثمانمائة زوج من البساط أقل طول كل واحد منه عشرون ذراعًا فى عرض عشرة، فتعجب الحضار.

جوهرة:

قال حضرة مولانا السلطان: هذا الكذب قطرة من نهر كلامه، قلت: أولاً قد يثبت أن الصحابة رضى الله عنهم ما وصلوا على البساط.

درة:

قال حضرة مولانا السلطان: على تقدير الوجود هذا يملأ عشرة مثل هذا الجامع فما حكمة الإسراف فى البسط؟

المناسب لهذا المجلس:

قيل: خرج ضرير فى ليل مظلم وفى يده لحم على الساج وفى يده الأخرى السراج، قيل له: حمل سراج الضرير من صقاعة الذقن وسوء التدبير، لأن الليل والنهار متساويان عند الضرير، فضحك الأعمى وقال: اسمع، فائدة حمل هذا النور لأجل مثلك أعمى القلب المغرور، حتى لا يدفعونى ويكبوا طعامى لا لأجل نفسى.

الخاتمة:

قال الخليـفة لابنه: إذا أردت المهابة فـلا تكذب، لأن الكاذب لا يهاب ولو كان معه مائة ألف سيف.

المجلس الخامس

طلعت يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب، وقـعدوا فى الدهيشة ثمانيًا وثلاثين درجة، وما خـرج حضرة مولانا السلطان بعد المغـرب من الدهيشة، وكان الإمام فى تلك الليلة الشيخ شمس الدين السمديسى، ووقع فيه مسائل.

السؤال الأول:

قال مولانا السلطان: ما معنى أشتاتًا فى اللغة؟

الجواب:

قال أم أبى الحسن: إن فى القيامة يمطر أربعين يومًا منى الآدمى، الرد: قلت: لا دخل لهذا الكلام فى جواب سؤال مولانا السلطان.

تحقيق:

قال مولانا السلطان: يا شيخ أحمد تريد أن تتوه كلامى وسؤالى.

السؤال الثانى:

قال مولانا السلطان: مع معنى قوله تعالى: (كـشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) ما شجرة بهذه الصفة فى الدنيا؟

الجواب:

قلت: المراد من السماء هو العلو، أو نقـول: المراد من الشجرة النخل،

أو نقول: يمكن أن يفرض شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وشبهت الكلمة الطيبة بها مقل قول القائل:

أعلام ياقوت نشـــر ن على رماح من زبرجد

ولا يلزم أن يكون المشبه به موجودًا.

السؤال الثالث:

قال مولانا السلطان: ما معنى لفظ الحين فى آخر هذه الآية الكريمة؟

الجواب:

فيه اختلاف بين المفسرين، قيل: المراد من الحين ستة أشهر وقيل شهران.

قال السمديسى: الحين يطلق ويراد به أربعون سنة كقوله (هل أتى على الإنسان حين من الدهر).

وقد يطلق ويراد به ستة أشهر بدليل (تؤتى أكلها كل حين) وقد يطلق ويراد به الآن.

السؤال الرابع:

قال مولانا السلطان: لفظ الحين فى هذه المعانى مستعمل على الحقيقة أو على المجاز؟ وعجز الشيخ عن الجواب.

الجواب:

قلت: قد يطلق الحين أيضًا على القيامة مثل (فتمتعوا حتى حين).

وقد يطلق بمعنى الموت كقوله تعالى (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين).

التحقيق:

قلت: هذه المعانى الثلاث التى ذكرها الإمام فى اصطلاح الفقهاء، وأما عند أهل التفسير فاستعمالات لفظ الحين كثيرة.

واقعة:

وفى هذه الأيام خرج ثيران السلطان إلى برسيم، ونهب خدام الثيران بعض الدكاكين، وكانت هذه عادة مستمرة، وبدعة مستقرة، فى زمن السلاطين السالفة مثل بيبرس وقلاوون.

لما سمع حضرة مولانا السلطان: أنهم نهبوا أمر بالنداء برفع هذه البدعة القبيحة والعادة السيئة.

وأمر أيضًا بالنداء: من ضاع منه شىء بسبب هذه الجماعات لابد أن يجىء ويأخذ من حاجى بركات المحتسب، وخلى عنده ألف دينار.

ثم كتب أصحاب الدكاكين فكان كل ما ضاع منهم ثلاثمائة دينار، فأخذوها من المحتسب.

العدل:

قال حضرة مولانا السلطان: لو ضاع منهم والله عشرة آلاف لأعطيتهم.

سياسة:

وقال للجماعة الذين اشتكوا: لأى شىء ما قتلتم هذه الجماعة البقارة.

مرحمة:

وقال حضرة مولانا السلطان: لو كان ابنى يظلم الناس مالى حاجة به.

الإنصاف:

ثم أمر حضرة مولانا السلطان بصلبهم، فشنقوا أربعا منهم وجرسوا البواقى.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: خرج ليلا السلطان محمود بيلوزيوم فقير، فرأى عجوزاً مهمومة فقال: ما سبب همك؟ قالت: يجىء جندى ويزنى ببنتى قال: ما لباسه وما زيه؟ قالت: كذا وكذا، قال الملك مهما يجىء أخبرنى فلانا الطواشى.

لما أخبرته خرج السلطان بهيئته الأولى وفى يده سيف، فجاء إلى بيت العجوز وقال: يا عجوز أطفئ السراج، فقتل الجندى، ثم قال السلطان: هل عرفت من هو؟ قالت: لا، قال: هذا ابنى، وأنا السلطان محمود، وأنا أمرتك بإطفاء السراج حتى لا أنظر وجهه فأرحمه.

الخاتمة:

قال أنوشروان: إصلاح الرعية أحسن من كثرة الجنود والمملكة.

المجلس السادس

طلعت يوم الخميس خامس عشر شهر رجب، وكان الإمام الشيخ محب الدين المكى، وعمل حضرة السلطان مولداً الجواب جمع فيه السادات والعلماء والقضاة والمشايخ والأمراء، وحضرة المخدوم تاج الأكابر القاضى كاتب السر، والقاضى عبد القادر القصروى، ولبس الأمير الكبير بعد العشاء خلعة بدن مولانا السلطان، وقعدوا فى الدهيشة خمسا وسبعين درجة.

المناسب لهذا المجلس:

قيل لما قصد إسكندر تسخير مُلك الصين رسول من الخاقان إلى إسكندر وقال: أمرنى الخاقان أن أتكلم فى الخلوة، فربطوا يديه وطلعوا به إليه، قال إسكندر: ما رسالتك؟ فقال: أنا ملك الصين جئت إليك، مهما تحكم أطاوع، ومهما تأمر أسمع، قال له إسكندر: ما خفت من هذه الجرأة؟ فقال الخاقان: قد عرفت أنك ملك صاحب دولة، وما بينى وبينك نفاق، ولا بين آبائى وآبائك خناق، ولو تقتلنى قتلت شخصًا واحدًا من عسكرى، فيولون شخصًا آخر فى موضعى.

لما سمع إسكندر عظّمه تعظيمًا عظيمًا، ثم قال إسكندر لخاقان الصين: نطلب منك أن تبوس الأرض، وخراج ثلاث سنين، فقبلها بالسرعة.

ثم قال إسكندر: فكيف حالك بعد هذا؟ قال فى غاية المذلة، أخرب أنا والرعية.

ثم قال: لو نقنع بخراج سنتين فما حالك؟ قال أحسن من الأول.

ثم قال: لو نأخذ خراج سنة فما حالك؟

قال الخاقان: تفرغ ذخيرتى ولكن ما تُستأصل مملكتى ورعيتى، لما رأى إسكندر منه هذا الرأى والتدبر رضى منه بخراج ستة أشهر.

فحمده ملك الصين وقال لإسكندر: إذا قُرر هذا الأمر مقصودنا أن نأكل معكم لقيمة، ونقعد فى خدمتكم لحيظة، فعملوا ميعادًا لأجل الضيافة، فباس الأرض وخرج فى الساعة.

وما ذكر إسكندر هذه القصة لأحد من العسكر، ولما جاء ميقات اليوم

الموعـود ركب إسكندر مع جمـيع عسكره وراح إلى المحل المـعهـود، وخرج سلطان الصين مع عسكر الأولين والآخرين، فلما التـقى الجامعان كان عسكر إسكندر بين عسكر الخـاقان كالنقطة بين الدائرة، أو حلقـة فى وسط البادية، فاسـتعد إسكندر للحـرب وقصد الهـرب، فحينـئذ خرج من عـسكر الصين الخاقـان، قال له إسكندر غـدرت البيانات، قـال ملك الصين: الغـدر ما هو شغل الـسلاطين عالـى القدر، الخدم إنما هو صـنعة الفجـار، لا الملوك ذوى الاقتدار، مـقصودى من عرض العسكر أن يعـرف إسكندر أن إطاعتنا ما هى من العجز، بل لأجل أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، ومطواعتى بناء على هذا، قال إسكندر: مـا نأخذ منك ولا جديدًا، فمـد الخاقان سمـاطًا لعسكر إسكندر ما رأت مثله عين البشـر، ونزل الخاقان مع إسكندر فى موضع آخر، فقعدوا من البكرة إلى العـصر بلا طعام، فمد سماطـا صلهم صحونهم ملأى باللآلى، وأقداحـهم ملأى من اليـواقيت الغوالى، وعـمل أقراص الخـبز من الذهب، وأحضر من الجواهر الأشياء العـجب، فقال الخاقان لإسكندر: باسم الله فى هذا لما حضر، قال إسكندر: فى هذه البلاد يأكلون هذه الأشياء؟ قال الخاقان: فأهل الروم يأكلون ماذا؟ قـال إسكندر الخبز واللحم والأرز والدجاج والماموية (؟) والوز، قال الخاقان: لو كـان أكلكم هذه الأشياء لما خرجتم من الروم إلى ههنا، ما كـان فى الروم الخبز واللحم والتـين والعنب، حتى تجىء إلى الصين وتأكل بهذا التعب؟ فبكى إسكندر، فقال لأعيان دولته: حصل لنا فائـدة هذا الـسفـر، وبواسطة هذا ما لقـينا من سفـرنا هذا نصبًـا، وباس يد الخاقان، وقال درويشى درويشان[1].

(١) كذا فى الأصل. وأظنها درويش درويشان أى درويش الدراويش، يعنى تابع الأتباع.

الخاتمة:

قال الضحاك الملك: إذا أرسلت رسولاً إلى حاجة فابعث حكيمًا، فإن لم تجده فاذهب أنت بنفسك، كذبك على نفسك أحسن من كذب الغير عليك.

المجلس الثامن

طلعت يوم الثلاثاء عشرين رجب، وقعدوا فى الدهيشة أربعين درجة، وكان الإمام الشيخ محب الدين الحلبى، وأهل المجلس مدحوا عمارات حضرة مولانا السلطان.

قال مولانا السلطان: لو كانت الدهيشة من زمن السلطان قايتباى بهذه الهيئة لما خرج من القلعة، وما راح إلى القبة.

تنبيه:

قلت: ومن جملة عجائب عمارات السلطان عمارة الميدان، الذى تحير فيه عقل الإنسان، ومنها تجديد البيسرية، ومنها الدهيشة الأشرفية، وتجديد القصر الأبلق، الذى فى البلاد مثله ما خلق.

ومنها جامع الغروية، ومنها المدرسة الأشرفية مع القبة الزرقاء، الذى ليس مثلها فى القبة الإسلام تحت قبة الزرقاء.

ومنها عمارات الأشرفية والطبقات التى حولها، وهى كجبل شامخ فى مصر جامع، وعمارات القلعة الشريفة وأطراقها التى هى كبناء مصر جامع فى الجبل.

ومن عجائب دولته عمارات كثيرة، فى مدة يسير، عمل فى ستة سنين، الذى لا يمكن مثله فى ستين.

والمشهور بين الجمهور أن شداد بن عاد بنى الأهرام الذى لم يخلق مثلها فى البلاد فى مدة ستة سنين، لا شك لو جمع هذه العمارات يجىء بقدر الأهرام مع بعد عماراته الشريفة عن الجبل وتعب الحمل بالجمل، وكان بناء الأهرام فى وسط الجبل.

المناسب لهذا المجلس:

قيل: الملك كالجبل الشامخ فيه الثمار والمياه، وفيه الوحوش والطيور، وفيه الانخفاض والارتفاع.

الخاتمة:

قال إسكندر: زائر السلطان يرفع قدره، ويعلو ذكره، ويبلغ إلى حصول مقصوده إذا كانت الزيادة على السنة المرضية.

من المجلس التاسع

طلعت يوم الخميس ثانى عشرين شهر رجب، وقعدوا فى الدهيشة أربعين درجة، وكان الإمام سيدى على الأخميبى وقرئوا فى تلك الليلة تواريخ عجيبة.

قال صاحب التاريخ: زوج السلطان ملك شاه السلجوقى بنته بالخليفة، وكان مائة ألف جمل تحت جهازها[1].

(١) تزوج الخليفة المقتدى بالله (٤٦٧ - ٤٨٧) بنت السلطان ملك شاه، ويقول ابن الأثير إن الجهاز حمل على مائة وثلاثين جملاً وأربعة وسبعين بغلاً أمامها ثلاث وثلاثون فرسًا من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب الخ.

درة:

قال مولانا السلطان: هذا مثل البلخش[1] بقدر رأس الجمل.

غريبة:

قال فى التاريخ: دخل الفارابى فى مجلس سيف الدولة، قال له الملك: اقعد، فقال: أقعد فى مكانى أو مكانك؟ قال: اقعد فى مكانك، فقعد فوق الكل بحيث يخرج سيف الدولة من السرير.

تأديب:

قال حضرة مولانا السلطان: ما عمل الفارابى مليحًا لأنه مستلزم لقلة الأدب مع ظل الله.

فقصد مماليك سيف الدولة قتل الفارابى وتكلموا بالسان العجمى، أن هذا رجل قليل الأدب خفيف العقل، قال لهم الفارابى باللسان العجمى: اصبروا إنما الأعمال بالخواتيم، فبحث مع علماء المجلس وغلب على الكل، وتعجب سيف الدولة من هيئته وهيبته، قال له: تأكل لقمة؟ فقال: لا، قال: أتسمع نغمة؟ قال: نعم فأحضروا المغنيات، فما أعجب الفارابى شغلهم، وقال: لو كان مرسومكم لنضرب قليلاً، قالوا: لا بأس، فأخرج قطعة من الخشب وركب عليه الأوتار وضرب، فضحك جميع من فى المجلس، ثم ضرب فبكوا، فأمر له سيف الدولة بدينارين فى كل يوم.

ومات الفارابى فى الشام.

---

(١) البلخش من الأحجار الكريمة.

الحكمة:

قال حضرة السلطان: ما خلص الفارابى من القتل عند سيف الدولة إلا اللسان العجمى، ولهذا قيل: اللسان مع الإنسان شخص ثان.

حكاية:

قال فى التاريخ: إن المأمون رأى جارية فصيحة على ظهرها قربة، قالت: يا أبتى أدرك فاها، غلبنى فوها ولا طاقة لى بفيها، قال المأمون: أنت تريدين عشرة آلاف معجلة أو مائة ألف مؤجلة، قالت يا أمير المؤمنين بقى قسم آخر، وهى مائة ألف معجلة، فتعجب المأمون من كلامها.

نادرة:

قيل فى التاريخ: كان اسم أم خليفة شرارًا، واسم امرأته قطرًا.

درة:

قال حشرة مولانا السلطان: الشرار اسم موحش، وأعجبه اسم القطر، قال: تسمية الحبيب بالأشياء اللطيفة لطيف.

موقف:

قرءوا التاريخ إلى أن ذُكر اسم أم الخليفة كان زمردًا.

درة:

قال مولانا السلطان: الزمرد مناسب لختم المجلس والخاتم.

سؤال:

سأل مـولانا السلطان فى كل وقت أكل الفـالوذج، ما اسـمه باللـسان العجمى؟

قلت: بالوده.

من المجلس العاشر

طلعت يوم السبت رابع عشرين شهـر رجب، وقعدوا أربعين درجة فى الدهيشة، والإمام كان الشيخ عبد الرازق، ووقع فيه أشياء.

نكتة:

قال صاحب العقائق: إن حسن الدنيا كان عشرة، فجاء تسعة ليوسف، وواحد لجميع الدنيا.

قلت: يشكل بقوله عليه السلام: أنا أملح؟

الجواب:

قال مولانا السلطان: المـراد أن حسن يوسف تسعة أعشـار حسن الدنيا التى فى زمانه، ونبينا كان الأحسن الحقيقى ويوسف الأحسن الإضافى.

عجيبة:

قال فى التاريخ، ولد ولدان ملتـصقان بالظهر، وكانا متـخانقين فى كل يوم.

وذكر أيضًا أن فى تلك السنة وقعت مخانقات كثيرة.

درة:

قال مولانا السلطان: إذا كان أخوان ملتصقان يتخانقان فالمخانقة بين الناس بطريق أولى.

درة:

قال مولانا السلطان للقاضى شمس الدين العزى: عقلك عقل العامى.

ومعنى هذا الكلام أنه لما قصد دولتباى العصيان على مولانا السلطان قال له القاضى: العصيان مع هذه الدولة مثمر للندامة، وموجب البعد عن طريق السلامة، قال له: اسكت عقلك عقل العامى، فغضب عليه، فهرب القاضى منه، فسمع مولانا السلطان هذا الخبر، وقال له إذا حضر: عقلك عقل العامى.

ثم قال مولانا السلطان: أنا أعرف كثيراً من الألسن فتكلم فى كل لسان مثل فصائحهم، الأول العربى والثانى اللسان العجمى والثالث التركى والرابع الكردى والخامس الأرمنى والسادس الجركسى والسابع أوزه وأخوخ واسى.

اتفاقية:

قال فى التاريخ: إن المتنبى وقع عليه الحرامى فى طريقه ليلاً من الليالى فقصد الهرب، قال له العبد: أنت ما أنشدت فى قصيدة وما قلت:

الخيل والليل والبيداء تشهى لى

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فرجع المتنبى وقتل[1].

(١) تحريف قصة المتنبى لمعروفة حينما خرج عليه الأعراب فقتلوه.

درة:

قال حضرة مولانا السلطان: العبد قصد التفرج.

حكمة:

قال مولانا السلطان: دخل جانبك الحبيب إلى الروم وكان قاصدًا، قيل له: من أنتم حتى تحكموا بيت الله الحرام يا أولاد الكفرة، وهذا الملك يليق بسلطاننا وهو السلطان ابن السلطان ابن السلطان، قال جانبك فى جوابهم: (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) من كان أبا سيدنا إبراهيم، ومن كان أبا محمد عليه وعليهم السلام؟

وأيضًا ورد أن شرف الشخص بالعلم والأدب لا بالأصل والنسب.

قال الشيخ كورانى: لا تتكلموا فى حق سلاطين مصر فإنكم تفضحون أنفسكم، فتعجب السلطان بايزيد من كلامه فأنعم عليه إنعامات كثيرة دقيقة.

قلت: والعجب أن إسكندر باشا لما أمسكه السلطان قايتباى خلاه فى الطبقة بسبب عدم معرفته بواجبات الشريعة.

ثم حضرة السلطان طلب منى أشعار الملوك، قلت: يقول سلطان حسين البيقرا[1] شعر.

وه نه حالتدركه من هرنتيجه كور كرسم نياز

أى بالتالى بدمهر ! سندن ظاهر أو لمزغيرناز

(١) يعنى حسين بيقرا من بنى تيمور المتوفى سنة ٩١٢.

المناسب لهذا المجلس:

أن ملوك الفروس يتكلمون فى يوم الحرب بالتركى، وفى الأمر والنهى بالفهلوى، وفى المنادمة والمجالسة بالفارسى.

الخاتمة:

قال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على مقدار أربابها: الكتابة تدل على مقدار كاتبها، والهداية تدل على عقل مهديها، والرسول يدل على مقدار عقل مرسله.

من المجلس الحادى عشر

طلعت يوم الثلاثاء سابع عشرين شهر رجب، وقعدوا فى الدهيشة زمنا قليلاً، وكان الإمام الشيخ محب الدين المكى، ووقع فيه المسائل.

حكاية:

قال صاحب العقائق: إخوة يوسف لما وصلوا إلى الجب لكموا ولطموا يوسف وقصدوا قتله فمنعهم يهوذا من القتل، ويوسف يبكى ويبوس أيدى وأرجل الكل.

السؤال:

قال مولانا السلطان: والعجب أنهم ارتكبوا بيوسف هذه الأفعال الشنيعة وفى الآخر صاروا أنبياء!

الجواب:

قلت يا مولانا السلطان: ما ثبتت نبوتهم.

جدل:

قال الخواص: أنا رأيت فى الكتاب أنهم أنبياء.

قلت: أنت قرأت شيئًا من العلوم؟ وفى أى كتاب رأيت؟ فليس للعامى أن يتعرض للعلماء، ويتكلم أمثال هذه الأشياء. قال القاضى محمود الخليلى: لابد أن يكون إخوته أنبياء لأن ولد النبى نبى؟

الجواب:

قلت: يلزم أن يكون جميع الناس أنبياء بناء على هذا حتى الكفرة، لأن كلهم أولاد آدم صفى الله، ونوح نجى الله وأنت، تعلم قصة قابيل ولد صلب آدم الصفى وقصة ابن نوح النجى الذين نزل فى التنزيل قصتهما[1].

تربية:

قال مولانا السلطان: يا شريف، خلاف الجماعة ما هو مليح.

قيل: رأى حاتم شخصًا فقال له: (كنت فى أين؟) فقال: كنت فى ضيافة حاتم، فذبح لأجلى الوز والغنم، وطبخ أنواع الأطعمة وأحضر الفواكه والأشربه، قال له حاتم: أنا حاتم (فى أين رأيتك)[2] ومتى ضيفتك؟ فقال فى الجواب: أنت مشهور فى الدنيا بالجود والكرم، وما قدرت أن أخالف أهل العلم.

---

(١) يريد قصة قتل قابيل أخاه هابيل وقصة ابن نوح الذى أبى أن يركب فى السفينة مع أبيه فغرق (سورة المائدة وهود).

(٢) فى أين رأيتك، وكنت فى أين: أصل الكلمة العامية نين.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل: ذكر عند السلطان بابر وهو سبط تمور[1] وكان كريمًا وأنفق جميع خزائن جده على الناس، وقال إن حاتمًا ما أنفق معشار ما أنفقت أنت، وقال: ما نهاية كرم حاتم عند أهل العالم؟ قيل: إنه عمل بيتًا بأربعين بابًا وجاء سائل فى الكل وفى كل باب أعطاه شيئًا.

قال السلطان بابر: هذا يدل على بخل حاتم، لا على كرمه، لأنه لو كان كريمًا لأغناه فى الباب الأول بحيث لا يحتاج الرواح إلى الباب الثانى.

الخاتمة:

قال إسكندر: لا تلوموا المرء على بخله ولوموه على بذله، لأنه لا خير فى المرء لو لم يكن حافظًا لما يحفظه.

من المجلس الثانى

طلعت يوم الخميس تاسع عشرين شهر رجب، وقعدوا فى الدهيشة أربعًا وستين درجة، وكان الإمام الشيخ عبد الرازق، وجاب القاضى محمود كراسًا من الكشاف فى تفسير: (سوف أستغفر لكم)[2].

قال صاحب الكشاف: استغفر يعقوب ذنبهم فى الآخر فصاروا أنبياء.

ترغيب:

قال مولانا السلطان: ما تقول يا شريف فى جوابه؟ قلت: كنت مريضًا يومين ولكن أقول: إن هذا النقل موقوف على شيئين:

(١) محمد ظهر الدين بابر مقيم الدولة المغولية فى الهند وهو الابن الخامس من نسل تيمور.

(٢) يريد قول يعقوب لبنيه «سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم» فى سورة يوسف.

أما الأول: هل بيننا وبين المعتزلة موافقة فى عصمة الأنبياء أم لا؟

والثانى: كلام صاحب الكشاف ما يعارض القرآن، مع أن ذنبهم ثابت فى كتاب الله من عقوق الوالد والكذب وبيع المسلم فى بلاد الكفر، وترقيق المسلم، ونسبة صديق الله إلى السرقة فى قولهم: (فقد سرق أخ له من قبل)، كل هذه الأشياء كبيرة، ولا تليق بمرتبة النبوة!

قال حضرة مولانا السلطان: ما تقول يا قاضى فى الجواب؟

وقول الشريف إن فى الكشاف مذهب الاعتزال هل صحيح أم لا؟ قال فى الجواب: نعم.

قال حضرة مولانا السلطان: يا قاضى مجنون، إذا عرفت أن الكشاف على مذهب الاعتزال فلأى شىء استدللت به؟ تجىء بالنقل وتحط عليه[1] يا قليل العقل؟ ليس مقصودك إلا المكابرة، لا البحث والمناظرة.

قال القاضى محمود: صاحب الكشاف كان معتزلى الذهب فى الأول، ثم تاب فى الآخر من الاعتزال.

الجواب:

قلت: توبة صاحب الكشاف لا تخرج مذهب الاعتزال من الكشاف، فكلامنا فى الكشاف لا فى صاحب الكشاف، فإن الناس قد يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

نصيحة:

قال لى حضرة مولانا السلطان فى الخلوة: لو ما جبت النقل وفتوى

---

(١) يعنى: تعترض عليه وتوهنه.

العلمـاء على عدم إثبات نبـوة إخوة يوسف لأحلق ذقنك، قلـت: لو أجيب الفتوى، فقال: أنت تكون من الخواص.

المناسب لهذا المجلس:

قيل: صـاحب الكشاف مـسك حلقة باب الكعـبة، وقال: أنـا الشويخ المعتزلى من يجادلنى؟ قال إمام الحـرمين فى جوابه: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج).

خاتمة:

قال بعض الأفاضل:

إن التـفاسـيـر فى الدنيا بلا عـدد

وليس فـيـها لعـمـرى مثـل كشـاف

إن كنت تبغى الهـدى فالزم قراءته

فالجـهل كالداء والكـشاف كالشـافى

من المجلس الثالث عشر

طلعت يوم السبت غرة شـهر شعبان، وكان الإمـام الشيخ محب الدين الحلبى، وقال لى حـضرة السلطان على الطارئ[1] يا عدو صـاحب الكشاف ويادشمن[2] الزمخشرى.

قال قـاضى القضـاة الحنفى: من هو عـدو صاحب الكشـاف؟ فتـبسم

---

(١) يعنى فجأة.

(٢) دشمن: عدو بالفارسية.

حضرة السلطان وقال: الشريف، ثم قال: جبت الفتوى؟ قمت وبست الأرض وقلت: نعم.

صورة الفتوى:

ما قول علماء الدين، رضوان الله عليهم أجمعين، فى شخص يقول: لم تثبت نبوة إخوة يوسف الصديق عليه السلام، هل يقع فى محذور معغ أن القاضى عياض قال فى الشفا: وأما إخوة يوسف فلم تثبت نبوتهم، ومال إليه القرطبى والإمام الفخر الرازى وابن كثير قال: لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف؟

ثم قال فى الجواب أعلم العلماء المحققين، وبرهان الفقهاء المدققين، أستاذى أستاذ العالم، شيخ إسلام العرب والعجم برهان الملة والشريعة والحقيقة، والتقوى والفتوى والدين، إبراهيم ابن أبى شريف:

الحمد لله الهادى للصواب: لا يجىء على قائل ذلك محذور، ومن قال بخطأ هؤلاء[1] فهو غير مصيب، والمسألة خلافية.

وصححه أعلم علماء الحنفية، ومحب الحضرة الأشرفية، المحقق المدقق الذكى، الشيخ برهان الدين الكركى.

وصححه شيخ الإسلام السالك، وأعلم علماء مذهب الإمام مالك، الشيخ برهان الدين الدميرى.

وصححه شيخ الإسلام، أستاذى وأستاذ البشر، العالم العامل الولى، قاضى القضاة الحنبلى.

---

(١) يعنى هؤلاء العلماء الذين أنكروا نبوة إخوة يوسف.

وصححه مجتهد العصر، وشافعى الدهر، صاحب الوصف الجميل، الشيخ كمال الدين الطويل.

لما وقع نظر مولانا السلطان على القاضى محمود فى تلك الليلة، وفهم منه أن مقصوده الغلبة بالجدل والسفسطة، ومطلوبه من البحث ما هو إلا المكابرة، لا إظهار الصواب والمناظرة، وقصده الغلب المطلق، وإن كان على غير الحق، وأنه يفشى أسرار المجالس العلية عند الناس، ويفتخر بين العوام والخواص، غلب أسماء القهرية على الحضرة الغورية، واتصف السلطان صاحب النصر والفتوح، بصفة سيدنا نوح عليه السلام[1] فأمر بطرد الجميع، من الشريف والوضيع.

المناسب لهذا المجلس:

أنه قيل فى آخر دولة أنوشروان ظهر خارجى ذو شوكة فى بعض البلدان واجتمع عليه عياق كثير، فصار صاحب عسكر كبير، فطلب خطبة ابنة أنوشروان، وكان أنوشروان خائفًا من شوكته، وكان من رسوم كسرى أن يزوج البنات بالأقرباء لا بالغرباء، فشاور أركان دولته وأعيان مملكته فاتفق رأيهم على أن للملك بنتا صغيرة فيأخذ الملك بنتا بقدرها وفى الحريم يربيها، وحين تكبر يزوجها به، ففرح أنوشروان من هذا البيت فأخذوا بنتا من الأكراد، وكان لبزرجمهر بنت من الجياد، وفى بعض الأوقات تجتمع مع الكردية، فقالت لأبيها من سوء خلقها، فانغاظ بزرجمهر وقال ما هى بنت الملك، بل من الكرد جابوها، ولما ظهرت الأفعال القبيحة ثانيًا من الكردية، قالت بنت بزرجمهر: يا ابنة الكرد كم تؤذينى؟ فبكت الكردية واشتكت عند

(١) يعنى غضب نوح على قومه ودعاءه عليهم فى القرآن.

أنوشروان، فعرف الملك أن بزرجمهر أظهر بنته على هذا السر فأمر بإحضار موبذ موبذان (يعنى أعلم علماء ذلك الزمان).

فقال أفتونى فيمن أفشى سر السلطان، فقالوا جزاءه القتل عند أهل العقل والنقل، فأخذوا من رأس بزرجمهر تاج الوزارة، وحلوا من وسطه منطقة الإمارة، فشنقوا وعر وابنته ودورها حوله، وكانت البنت حين تمر تحت المشنقة تغطى عورتها بيديها وتغمض عينيها، لما ذكروا ذلك عند الملك طلبها وسأل منها حكمة ستر العورة تحت المشنقة، فقالت لأن الإنسان الكامل فى عسكرك كان أبى، لو كان إنسان آخر لشفع عند الملك، وخلص أبى من الهلك، فأعجب أنوشروان كلامها فتزوج بها، لما نزروا بزرجمهر رأوا تعويذاً مربوطًا على يده وكان المكتوب لإيه، لو كان القضاء والقدر حقًا فالحذر باطل، ولو كان الموت حقًا فربط القلب بالدنيا عين الحماقة، لما رأى أنوشروان هذا بكى بين الجمع، بحيث خرج من عينيه الدمع، فندم كثيرًا.

* * *

خاتمة الكتاب

يقول محرر هذا الكتاب، ومقرر هذا الخطاب المستطاب، العبد الفقير، المعترف بالذنب والتقصير، الواثق بالملك الغنى، حسين بن محمد الحسينى.

اللهم خلد دولة السلطان الأعظم، خليفة جمع من فى العالم، مبارز ميدان (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) واسطة قلادة الصورة والمادة، صاحب توقيع (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم)، وارث منشور (جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم)، أمير المؤمنين، خليفة المسلمين، الملك الأشرف، عزيز مصر، أبو النصر قانصوه الغورى.

اللهم أدم سبحات فيضانه على أغصان بستان الإمكان، وعمم إنعامه وإحسانه على أزهار أشجار الأكوان، ليجتنى من إرم كرمه، وروضة نعمه، أقاص وأدان إلى آخر الزمان، يا حنان يا منان.

الاعتذار:

ونرجو من مكارم الأخلاق والشيم، ونلتمس من علماء العالم، أن من اطلع منهم على سهو أو خطأ أو نسيان، وهو لازم لنوع الإنسان، أن يغمض العين، ويستره من البين، وأن يكون ساترًا للمعايب، لا مظهرًا للمثالب، ونستغفر الله لى ولكم وجميع المسلمين، إنه هو الغفور الرحيم.

صورة القصة:

ثم بعثت كتابًا على يد ملك التجار فى العالم، صاحب الجود والكرم، أعز عباد الله عند سلطان أعظم بلاد الله، خواجة محمد ابن عباد الله، زاد الله فضائله وكمالاته، فإنه آية من آياته:

على كل حـــــال أنـا المذنـب

ومـا يـحكم الشـرع مـــــتـــوجب

وإن شـئـتـــمـو سـامـحـــونا بما

جنيـنا وإن شـــئـــتـــمـــو عـــذبوا

قال الله تعالى فى كتابه العزيز: «إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

وقال شفيع المذنبين، وحـبيب التوابين: لكل شىء حيلة وحيلة الذنوب التوبة.

يا سلـطان الســـلاطين، ويا ظل الـله فى الأرضـــين، ويا حليـم عند الغضب، ويا أشرف ملوك العجم والعرب، اغفر لى ذنبى، واستر لى عيبى.

* * *

من أشعار حضرة الغورى نصره الله تعالى

لا تؤاخذ ثم اغفر ذنبنا وهو عظيم

وهدى منك ولطفًا للصراط المستقيم

لو تعـــــذبنى بعـــــدلك

وإن تســـــامـــحنى بفـــضـلك

أقول: أستغفر الله من الذنب الذى أعلم ومن الذنب الذى لا أعلم «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا» يا كشاف القلوب، ويا غلام الغيوب، ويا ستار الغيوب:

أيهـــا الريـح الصـــبـــا رح بكرة

عند باب خـــسـر وصـاحـب قـران

حـضـرة السلطان أمـيـر المؤمنين

قانصوه الغورى عـزيز مصر وقان[1]

حكـمـــــه وملـكه وعـــــدله

يوسـف وإسكندر ونـوشـيـــروان

بعد بوس الأرض اسـتغـفر كثـير

لأجل ذنب العـبـد مـكسـور الجنان

(تم بعون الله تعالى وحسن توفيقه)

---

(١) قان: خان من ألقاب ملوك الترك، والوزن يقتضى حذف الهاء من (قانصوه).

اعتذار من كلام حضرة السلطان

يا إلهى بن كنه كـــار أنت غـــفـــار الذنوب

عـيـبـمنى يوزيـمـه أورمـه أنت ستـار العيـوب

قامـوا اشلر ساكـه معلـوم أنت علام الغـيوب

بن فـــقـــيـــره قل عـنايت إنـنى أرجـــو غـناك

يا إلهى كـــجـــدى عـمـــرم بالخطـايا والزلل

دنيـسايـه مـــشـــغـــول أولدم غـــرنـى طول الأمل

دون كون شر اشلمكده ما اكـتـسب خير العمل

سندن أوز كـــه يوق أميـدم لا ولا مـــولى سـواك

يا إلهى حـضر تكده حـين نقف عـريان ذليل

يغـــرى بشلو كـوزى يـشلو دمـعـــه قـانى يســيل

عفـو قيل أول كونده صـوجم إن أوزارى ثقيل

آنى مـــحـروم أتمـه أنده يوم يرجـــو الناس لقـــاك

يا إلهى أول حـــبـيـــبك هاشـمى المـصطفى

هم أبو بـكر عـمـــر عـــثـــمـــان على المـرتضى

مـسعى ومـروة حقـيحـون والمشاعـر والصفـا

غـورنـك بغـــشـله صـــوجـن مـــاله إلا عـطاك

يا إلهى غـــورى قـــولك ذنبـــه ذنب عـظيم

سن بغـــشلـه صـــوجلرينى يـا كـريـم يا رحـــيم

رحمتوكه ديمتـريوس رجائى للخلائق ذا عميم

هم غـــضب أودينه يـقـمـــه كلنا نـرجـو رضـــاك

* * *